الابتسامة الغامضة
١٩٦٣

الابتسامة الغامضة

لا يختلف اثنان فى المدرسة كلها على أن « صابر أفندى » أخلص وأنشط مدرس ، وما عدا ذلك لايتفق شخصان فى المدرسة على رأى بالنسبة لصابر أفندى ، بل لايكاد شخص واحد يستقر على رأى فيه ·· حتى الناظرة التى لم تكن تخفى اعجابها بدقته فى عمله ، وحرصه على مواعيد الحصص أصبحت لاتخفى ضيقها بالطريقة التى يتبعها لكى يكون فصله مثاليا فى كل شىء ، ففى كل يوم يرسل لها بصحبة الضابطة تلميذة أو أكثر ·· رجاء التكرم بتوقيع العقاب المناسب مع تلخيص سريع لنوع الخطأ الذى ارتكبته التلميذة ، ومعظم هذه الاخطاء لا يخرج ابدا عن الكلام أو الضحك أو العبث فى الفصل ··

ومع ان الناظرة لم يكن يضايقها شىء مثلما تضايقها هذه الاعباء الجديدة التى يضيفها اليها « صابر أفندى » فانها لم تكن تستطيع أن تمنع نفسها ـ وهى فى قمة الضيق ـ من الاعجاب

بشيئين : خط صابر أفنـدى الأنيـــق حتى وهو يكتب معبرا عن سخطه ، والطريقة الجادة التى يكتب بها شكواه من التلميذات مما جعلها تعتقد أن هذا الرجل لن يفهمها أبدا لو طلبت اليه أن يدبر أموره مع تلميذاته كما يفعل الاساتذة · ولقد دفعها ذلك ان تهمس « لخليل أفندى » حلقة الاتصال بينها وبين جميع المدرسـين ، أن يوضح الأمور « لصابر أفندى » فليس فى المدرسة كلها مدرس واحد يرسل الى مكتب الناظرة كل يوم مثل هذا العدد من التلميذات ·

وعبثا حاول خليل أفندى أن يوضح الأمـــور بلباقته التى رشحته لمثل هذه المهمة ، لقد انتظر عليه صابر افندى حتى فـرغ من مقدماته الطويلة الى غرضه ، ثم قال بلهجة حاسمة وهو يثبت فيه عينيه الصارمتين :

ـ اسمع يا أستاذ خليل ، التدريس فى نظرى ليس مجرد مهنة أو وظيفة آخذ عليها أجرا ·· انه رسالة ·· مسئولية تربية جيل جديد وتوجيهه ، والتربية عملية تشمل الانسان كله ، ثقافته وخلقه البنت فى فصلى لابد أن تكون ممتازة فى خلقها وفى ثقافتها على السواء ، ولهذا مستحيل أن أسمح بوجود بنت تهرج أو تتكلم أو تضحك فى الفصل ·

ـ لكن ياصابر أفندى أنت تعرف اننا كلنا ·· فقاطعه صابر أفندى محتدا ··

ـ ياخليل أفندى ·· معذرة ·· أنا لا أقبل أن يكون فصلى مثل بقية فصول المدرسة ·· لكم دينكم ولى دين·وحين وصل الأمر الى هذا الحد آثر خليل افندى انهاء المناقشة ، فقد كان منذ البداية يعلم أنه لافائدة ترجى من الحديث مع صابر أفندى ، ولولا خاطر الناظرة ما حاول قط أن يفتح معه مثل هذا الحديث ·

في المدرسة

وفى الواقع أن فصل « صابر أفندى » كان يختلف عن بقية فصول المدرسة كما كان صابر أفندى نفسه يختلف عن بقية المدرسين وكان هذا الاختلاف مما يتحدث عنه عادة المفتشون والمسئولون الذين لاتستغرق زيارتهم للمدرسة اياما كل عام أو عدة ساعات فى اليوم · وقد كانت أحاديث هؤلاء المسئولين حرية بأن تبعث فى نفس « صابر أفندى » من السعادة ما يشجعه على أن يستمر فى كفاحه الدائب من أجل أن يظل فصله دائما نموذجيا فى كل شىء · لولا أنه بدأ يلاحظ أخيرا فى هذا الفصل الهادىء الساكن كوجه البحيرة شيئا غريبا لاعهد له به ·· شيئا لايستطيع أن يبوح به لمخلوق ، فالمخلوقات التى حوله ربما كانت فى انتظار أن تسمع شيئا كهذا لتشمت به شماتة لا حد لها ·· !

لا يدرى « صابر أفندى » متى يحدث هذا الشىء الغريب ، ما ان يدخل الفصل ، ويغلق خلفه الباب ، حتى يكون كل شىء على مايرام ، التلميذات يقفن فى نظام ويجلسن فى هدوء ، الصمت يخيم على الفصل كله ·· فكل تلميذة تعرف أنه لن يفتح فمه بكلمة قبل ان يسود الصمت · صوت « صابر أفندى » يرتفع تدريجيا حتى يملأ الفصل كله ، والنشاط يتسلل الى جسده ، فتزداد حركته بين السبورة ومقاعد التلميذات وتنشأ علاقة غريبة بين كلمات معينة وبين حركات يديه بل حركات رأسه فكلمة « مفهوم لغاية كده ؟ » وكلمة «كويس كده» يستتبعان ميلا خفيفا فى عنقه جهة اليمين وفى اللحظة نفسها تتلاقى أطراف اصابع يديه المبسوطتين للحظات عابرة ، كل شىء يكون فى البداية على مايرام ، وفجأة يحدث هذا الشىء الغريب ، لايعرف « صابر أفندى » كيف ولا متى يحدث ·· ؟ ولا من أين يتسلل ··؟ الباب محكم ، والصمت لم يخدش بعد ، ورءوس التلميذات لاتزال تتابع « صابر أفندى » فى حركته وكأنها مربوطة فيه بقيود خفية ·· ومع ذلك فهو يلاحظ أن هذه الرءوس التى أمامه تتحول فجأة الى

مجرد كرات ٠٠ مجموعة من الكرات ثبتت باحكام فوق مجموعة من الاجساد البشرية وتتحول العيون الى مجـرد ثقوب فى هذه الكرات ، ومع أن هذه الثقوب لاتزال تتابع حركته فانه يحس بطريقة ما أنها لاتقف عنده ، لاتبصره ٠٠ !

حتى هذه اللحظة ، والامر لايزال محتملا ومما يمكن علاجه، ولكن مايحدث بعد ذلك هو ما يملأ نفس صابر افنـــدى بالمرارة والحيرة ٠٠ ان ما يحدث بعد ذلك ، هو أن تأخذ هذه الكرات شكل وجوه بشرية تظهر فيها ملامح مرهفة ، ولايكاد « صابر أفندى » يسعد برؤية هذه الملامح البشرية حتى تنتكس ســـعادته ، حين تصطدم بهذه الابتسامة التى تولد فجأة مع هذه الملامح ابتسامة غامضة ترد الثقبين الفارغين الى عينين بشريتين ، وتحرك كـل عضلة فى الوجه ، ولكنها لا تصل أبدا الى شفتى أية تلميذة ٠٠٠٠ وبهذا تظل تلك الابتسامة الغامضة شيئا لا يقع تحت دائرة الممنوعات التى يعاقب عليها صابر أفندى بالطـرد ، فهـى لاتتحول أبدا الى ابتسامة واضحة أو الى ضحكة أو الى حركة عابثة ، ويحدث أن تنتقل تلك الابتسامة الغامضة من وجه الى آخر ويتحول الفصل كلـــه الى وجه كبير تختلج مـــلامحه كلهـــا بتلك الابتســـامة الغامضة ٠٠ !

ولقد حاول صابر أفندى طويلا أن يتجاهل أمر هذه الابتسامة ما دامت لاتمس مظهر الفصل كما يراه بقية المدرسين ، ومادامت لاتحول بينه وبين أداء واجبه على الوجه الأكمل ، كان يخشى اذا اعتبرها خطأ يعاقب عليه ، أن يكون فى هذا اعتراف بها ، وربما تأكيد لوجودها ، كان يتوقع أن تختفى فجأة كما ظهرت فجأة ٠٠ ولكن ماحدث هو أنها لم تختف قـط ٠٠ كانت تطفو دائما فـــوق سطح الفصل الساكن الهادىء كجزء منه ، وبـدأت تعمل عملهـا

الخفى فى نفس صابر أفندى ٠ مستحيل أن يكون وجود تلك الابتسامة أمرا عاديا لامعنى له ٠٠ الناس لايبتسمون بغير سبب ما ! لابد أنها تعبير عن شىء ، تدركه بطريقة واحدة كل هذه الوجوه ٠٠ شىء لايفصل بينه وبينها غير هذا الجدار الرقيق لهذه المجموعة من الكرات ٠ ! وأحس أنه يود لو حطم هذه الكرات ليعرف ما بداخلها وعاتب نفسه على هذا الاحساس البغيض ٠٠ لماذا يسمح للغضب أن يطيش بصوابه ٠٠ ؟ انه لا يفهم لحياته معنى الا فى تربية هذا الجيل لافى تحطيمه ٠٠ فى توجيه حياته الى مستقبل أفضل فلماذا يوشك أن يفقد صوابه أمام شىء كهذا ٠٠ ؟

لقد واجه بشجاعة وبحكمة كل ألوان العبث التى كانت تصدر عن الفصل وقضى عليها وأصبح فصله نموذجيا ، فلماذا يوشك أن يفقد زمام حكمته وشجاعته أمام تلك الابتسامة الغامضة؟ يجب أن يظل حبه لتلميذاته وواجبه أعظم من حبه لنفسه ولكبريائه ٠٠ لماذا لايكون صريحا مع نفسه فيعترف لها بأن ضيقه بهذه الابتسامة يرجع الى شعوره بأنها تختلف عن ألوان العبث الأخرى التى قاومها دون توتر بانها تبدو كما لو كانت موجهة اليه ، كما لو كان هو مقصودا بها ٠ ! وحتى لو كان الأمر كذلك فلماذا لا يفكر فيه على نحو أكثر واقعية ؟ أليس من الجائز أن يكون فى ملابسه فى صوته فى حركاته فى كلماته مايدعو الى الابتسام ٠٠ لماذا لا يعالج الأمر بطريقة تليق به كرجل صاحب مبدأ ؟

وأصبح صابر أفندى لايدخل الفصل الا بعد ان يتيقن من أن مظهره على مايرام ولا ينطق بكلمة الا بعد أن يديرها فى رأسه ليطمئن الى أنها ليست مما يثير الابتسام ، كما بدأ يقتصد فى حركات يديه ووجهه ويحاول أن ينتبه لكل ما يصدر عنه ، ان مصلحة

التلميذات فى نهاية الأمر تبرر كل جهـــد مبذول مهما كان شاقا ، والمعركة لن تكون بينه وبين التلميذات بحال ، يجب ان تظل بينه وبين الخطأ الذى يحرص على الا يقع بالدرجة التى يحـــرص بها على أن يجنب تلميذاته الوقوع فيه ايضا ٠٠ !

واعتقد « صابر افندى » أنه بهذه الطريقة الواقعية والمثالية معا سوف يقضى على هذه الابتسامة ولكن فرحته لم تكتمل بـل لعلها لم تبدأ ، فقد لاحظ « صابر أفندى » انه برغم الجهود التى بذلها لاتزال الابتسامة الغامضة تظهر فجأة وتنتشر سريعا ، وتطفو على سطح الفصل الساكن لتقيم بينه وبين تلميذاته حاجزا غايـة فى الرقة والصلابة معا ، حاجزا لا يقتحم ، ومن جديد أحس أن كبرياءه يتعرض لامتحان قاس هذه المرة ، ولكنه أقسم الا يدخـل الكبرياء فى الموضوع ، فاذا كانت التلميذات يبتسمن فمعنى ذلـك لدى أبسط العقول فى الدنيا ، أن هناك ما يدفعهن لذلك ، واذا كان هو قد عجز عن معرفة السبب ، فلن يوجد فى العالم كله من يعرفه أكثر منهن ٠٠ وبهدوء شديد تقدم « صابر أفندى » من أقـــرب تلميذة وسألها :

ـ لماذا تبتسمين ؟ هـل حدث شىء يدعو فى نظـــرك لهذه الابتسامة ؟

ـ لا يا أستاذ ، عايدة هى التى ابتسـمت أولا فابتســمت مثلها ٠٠

وقالت عايدة :

ـ لا ياأستاذ ، فاطمة هى التى ابتسمت أولا ٠٠٠

وقالت فاطمة :

ـ لا ياأستاذ سعاد هى التى ٠٠٠٠

ولم يجد « صابر أفندى » بدا من أن يوقف هذه السلسلة اللعينة · قبل أن يتعثر فى حلقاتها ويصبح أضحوكة ، وأعلن لتلميذاته أن مثل هذه الابتسامة مما يعاقب عليه ، وأنه لن يسمح لتلميذة تبتسم بالبقاء فى الفصل وفى اللحظة نفسها كان قد تعلم من هذه السلسلة أن هذه الابتسامة اللعينة تبدأ عادة من مكان ما فى هذا الفصل ، من تلميذة أو طائفة تحمل بذور الفساد ، وأن بقية التلميذات انما ينسقن فى تلقيدهن وأن هذه الابتسامة تختار عادة أنسب اللحظات لتولد ثم تنتشر ، وغالبا مايحدث ذلك حين يدير ظهره ليكتب على السبورة بخطه الجميل ، أهم نقاط الدرس ··· واذا تمكن من أن يعاقب هذه التلميذة أو هذه الطائفة أمكنه أن يقضى بذلك على أصل الفساد كله ، وأن يظل فصله كما كان دائما فصلا نموذجيا ··

***

وفى اليوم التالى تظاهر « صابر أفندى » بأنه يستدير ليكتب على السبورة ، ولكنه كان قد قرر الا يلجأ لهذه الوسيلة الا ليعرف مصدر الفساد فى الفصل كله ، فحين التفت فجأة ليواجه التلميذات وقبل ان يكتب على السبورة كلمة واحدة ، كان قد أبصر على الفور الطائفة التى تجلس فى الركن الايمن للحجرة ، والابتسامة اللعينة تولد فوق ملامحهن شريرة متلصصة حذرة ·· وطرد الطائفة بأكملها ، وبدأ يلتقط أنفاسه ، هذه الطائفة هى نفسها التى كانت تبدأ التهريج والعبث فى الماضى ، أما الباقيات فانه يعرفهن ···· غريرات ينسقن وراء الشر ولكنهن لايبدأنه أبدا ·· يجب أن يظل هذا الفصل نموذجيا كالعهد به ·· انه بذلك يحمى هؤلاء الغريرات وتلك مسئوليته ، كما أنه يتيح الفرصة للاخريات بأن يبدأن طريقا جديدا وفوق ذلك كله ، فانه سوف يتخلص الى الأبد من هذه الابتسامة الغامضة التى لم يقلقه طوال حياته شىء مثلها ·

فى صباح اليوم التالى لم يبال « صابر افندى » أن يدير ظهره للفصل كله حتى لايحرم التلميذات فرصة الكتابة على السبورة بخطه الجميل أمثلة توضح الدرس ، كان واثقا ٠٠ ! وكانت المصادفة وحدها هى التى جعلت قطعة الطباشير تنكسر فى يده فيلتفت ليستبدلها بقطعة أخرى ، فيبصر الابتسامة اللعينة تتسلل فى حذر على وجوه طائفة من التلميذات كانت تجلس مباشرة بجوار الطائفة المطرودة ، وسقطت قطعة الطباشير من يد « صابر أفندى » وارتعشت يده دون أن ينتبه لها ، وظهر وجهه كما لو كانت تهب عليه عاصفة عاتية ، وفى اللحظة نفسها كان صابر أفندى يفكر بنصف رأسه فقط ٠ « ما معنى هذا كله ؟ لم أفعل قط شيئا ضد هذه المخلوقات ٠٠ بل فعلت الكثير من أجلهن ٠٠ حتى قسوتى كانت من أجلهن ٠٠ لم تكن قسوة قط كانت حبا ٠٠٠ وحتى هذه اللحظة لا أعرف ماذا يفعل شخص مثلى بحياته اذا لم يبذلها من اجلهن ؟ أريد فقط ان أفهم لماذا يبتسمن تلك الابتسامة اللعينة ؟ أريد اجابة معقولة ولن أتردد لحظة فى أن أفعل أى شىء » ولمع فى نصف رأسه خاطر بدا له معقولا الى حد ما ٠٠ الشلة التى تبتسم تجلس بجوار شلة الأمس المطرودة ، ربما تأثرت بأخلاقها فى الماضى ٠٠ لن يتردد فى عقابها هى الأخرى ٠٠ قد يصلحهن العقاب ٠٠ ! لن يهمه أن يصبح عدد التلميذات الباقيات مما يسترعى نظر أى زائر للفصل ٠٠ المسألة ليست عددا ٠٠ المسألة تتعلق بمبدأ « يكون أولا يكون » وطرد الشلة المجاورة ٠٠ وبدا الفصل هزيلا حقا به من المقاعد أكثر بكثير مما به من التلميذات ، منظر المقاعد الخالية يقبض القلب ، ولمح فى خاطره أن الفصل بدون تلميذات لا يفترق أبدا عن أى مخزن للاخشاب القديمة ، وضاق بهذا الخاطر السخيف ٠٠ لا ينبغى أن يقف لحظة عند هذه الصغائر ، المسألة تتعلق بمبدأ ، انه يثق فى التلميذات الباقيات ،

يعرف أخلاقهن جيدا ، ومع ذلك فلم يجرؤ هذه المرة أن يدير ظهره للفصل ، ووجد نفسه يمضى فى شرح الدرس دون أن يلتفت الى السبورة مرة واحدة ، ولا يدرى ما الذى جعل صوته يرتفع هذه المرة فى أثناء الشرح عما تعود فى المرات السابقة ، وكان ارتفاع صوته ينم عما يشعر به من قلق ·· كما بدت حركات يديه أكثر عصبية ، وتنبه الى أنه يكرر أحيانا الكلمة الواحدة وربما الجملة أكثر من مرة ودون مناسبة ، واحيانا يصمت لسبب غريب هو أنه يكتشف ـ وهذا يحدث له لأول مرة ـ أن رأسه يخلو فجأة من أى كلام ·· كسائر يتحول الطريق تحت قدميه الى حافة نارية عميقة ·· وفكر فى تلك اللحظة أن يستدير ليكتب على السبورة ·· ليكتب أى كلام على حين يلتقط أنفاسه وينظم أفكاره ، وليستريح لحظة من عناء التحديق فى هذا السطح الساكن الذى يخشى ان تطفو فوقه الابتسامة الغامضة نفسها ، ولم يجرؤ مـــرة أخرى ، كان يحس بطريقة غامضة ان الابتسامة اللعينة فى طريقها الى السطح الساكن ، فى انتظار أن يدير وجهه لحظة واحدة ·· انه يلمحها تضطرب وترتعش وجوه التلميذات وتطرف عيونهن ولكنـــه لن يسمح لها أبدا بأن تطفو فوق هذه الوجوه ·· لن يمنحهـا هذه الفرصة ، ان وجوده ·· مجرد وجوده يغرقها تحت هذا السطح ، ولن يسمح لها ابدا بأن تطفو فوق هذه الوجوه ·· ان وجوده ·· مجرد وجوده يغرقها تحـت هذا الســـطح ، ولن تطفو فوقه الا جثتها ···

واكتشف فجأة أنـــه قـد مضت خمس دقائق دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة ، ودون أن تكون اسباب صمته مفهومة على الأقـل بالنسبة للتلميذات ·· وان عينيه وحدهمـا هما اللتـــان كانتا تحدقان فى وجوه التلميذات وفمه نصف مفتوح ، وذراعه لاتزال معلقة فى الهواء كأن شخصا يقبض عليها من الخلف ، وفكـر أن

منظره طوال تلك الدقائق كان ولا يزال مضحكا وأنه بذلك هو الذى ألقى بطوق النجاة لتلك الابتسامة اللعينة التى راحت تمزق السطح الساكن وترتسم فى لحظة واحدة على كل الوجوه سافرة متحدية كأنما تحمله وحده مسئولية ظهورها ٠٠ !

ومرت لحظات كان خلالها عاجزا عن أى تفكير ، لقد حاصرته الابتسامة حاصرت حتى خواطره ٠٠٠ خاطر واحد أفلت من هذا الحصار ٠٠٠ لن يكون بمقدوره أبدا أن يطرد أحدا هه المرة ، انه لو فعل ما كان هناك فصل على الاطلاق وما كان ثمة مبرر لوجوده ومع ذلك فقد أحس بطريقة قاسية أن وجوده مع تلك الابتســـامة اللعينة أصبح هو الآخر مستحيلا تماما ، فألقى على التلميذات نظرة أخيرة مريرة وأدار ظهره لهن و ٠٠ وخرج !! وحين تلاشى صوت الباب الذى صفقه من خلفه ، كانت الابتسامة الغامضة قد تلاشت بدورها وخلفت وراءها وجوما ثقيلا ٠ !

سحابـــة الغبـــار

لم أكن يوما من هواة الجلوس على حافة المقهى ، والتفرج بالمارة • ولكن بعد أن سافرت زوجتى وابنتى الصغيرة ، وبعد أن أصبح البقاء فى البيت الخالى يوما كاملا شيئا لا يحتمل ، وجدتنى ذات يوم أطل على الحياة من حافة المقهى الذى كنت قليلا ما أقصده لرؤية أصدقائى ، والذى يطل على أحد الميادين الصغيرة •

وفى هذا اليوم فقط اكتشفت أن التفرج بالمارة ليس أمـــرا سيئا بالدرجة التى كنت أتصورها ، فلا شىء يجعلك تحس بحركة الحياة وخصبها وتنوعها مثل جلسة كهذه •

والحق اننى اكتشفت ان الأمر السيىء حقا ، هو محاولتى القراءة وأنا جالس فى هذا المكان •

كان الشارع يجتذبنى ، اصوات الســـيارات وهـــى تنهـــب الأرض ، نداءات المتسولين وأزياؤهم ، الوجوه التى تخطت البصر

حتى لو كانت تعبر الطريق وراء زجاج عربة مسرعة ، البنـــات والطريقة الفذة التى ينقلن بها المشى من مجرد وسيلة انتقال الى فن من فنون التعبير ، السيدات اللواتى يسرن ببطء يناسب الأقدام الصغيرة التى تلهث فى اللحاق بهن ، أو الفستان الواسع الذى يحاول أن يعيد الى الجسم المثقل شيئا من التناسق ، العربـــات الفارهة التى تحمل مخلوقات كل شىء فيها يبرق ويتألق ، والعربات الخشبية التى تدفعها ايد معروقة نحيلة ، وهى محملة بالترمس أو التين الشوكى وصف من القلل يحيط بحافة العربـــة يربط دائمـا عيون الناظرين ...

***

ولا ادرى متى بدأت الاحظ أن جزءا من أرض الشارع ، اصبح مغطى تماما بسحابة من الغبار ، تثيرها عشـرات الاقـــدام التى تتجمع بطريقة لم تكن مفهومة لى حتى هذه اللحظة .. فقـد كانت السحابة تقطع الطريق بشكل لا يحدد لها اتجاها واضحا ، فهـــى تارة تنتقل من افريز لآخر ، وتارة تقف فجأة فوق ذلك الطوار المغطى بالكلأ والذى يقسم الشارع الى طريقين ، متحلقة حـول احـــدى الشجيرات التى تزرعها البلدية فى مثل هذا المكان .. !

كانت الاقدام التى تثير سحابة الغبار ترتفع بعشرات الجلابيب والسترات والقمصان والملاءات والرءوس العارية والرءوس المغطاة بالطواقى أو اللبد ، وأمكننى أن أميز وسط هذه الرءوس «بيريه » اكتشفت بعد جهد أن تحته سترة أحد العساكر بأزرارها النحاسية الصفراء ...

وبدا لى فى هذه اللحظة ، أنه من المستحيل وأنا جـالس فى مكانى أن أدرك سر سحابة الغبار المتنقلة ، ومع انـــه كان يتناثـر

حولها وفى دائرة أوسع من دائرة الغبار خليط من اصوات الرجال والنساء والاطفال ، فانها لم تكن تنبىء بوضوح عن أى شىء ...

ووجدتنى التفت حوالى ، فأدركت أن سحابة الغبار لم تحرك أكثر من عيون الجالسين حولى فى المقهى ، وخشيت أن أبدو مضحكا لو غادرت مكانى لاعرف سر السحابة المتنقلة ! لو اننى كنت سائرا فى الطريق ما ترددت لحظة فى اثراء هذه السحابة بقدمين جديدتين وقميص وبنطلون ..

ومن جديد وجدت السحابة التى كانت تصنع دائرة حول الشجرة تمتد وتستطيل مندفعة الى الطوار المقابل ، وأمكننى أن أميز فى رأسها مخلوقا ضئيلا يحمل على كتفيه طفلا ، ويندفع فى مقدمتها ، وتوارى المخلوق الضئيل خلف السحابة التى راحت تلاحقه ، لتتكوم حوله فى دائرة أكثر صلابة أمام أحد المحال المطلة على الرصيف المقابل ، ربما كان هناك طفل مصاب .. ولعل صاحب المحل لديه ما يسعفه به .. بيد أننى أبصرت صاحب المحل يخرج غاضبا وبيده مقشة طويلة ، حاول أن يفرق بها الدائرة المتجمعة أمام دكانه ..

وفجأة أبصرت المخلوق الضئيل يخترق الطريق كالسهم الى الناصية التى أجلس فيها ، ومع أن الطريق كان مفتوحا والعربات تخترقه مسرعة ، فان هذا المخلوق بدا فى هذه اللحظة أسرع من كل شىء يتحرك فى الطريق ، وكان شىء يشبه المعجزة هو الذى أوصله سالما الى الرصيف الأخير بما يحمل ، كانت العربات قد هدأت من سرعتها ، ودوت أبواق السيارات الخلفية ، وصدرت من السائق الذى فى المقدمة صرخات هستيرية ، يشتم بها المخلوق الضئيل ، والغريب أنه خلال ذلك كله كانت السحابة تخترق جميع

العربات الواقفة لتعاود تجمعها ، وتحكم دائرتهـا حول المخـلوق الضئيل الذى لم أكن قد تبينته حتى هذه اللحظة ! ٠

ودون تفكير وجدتنى أغادر مكانى فى المقهى ، منضـما الى السحابة ، ومع أننى أصبحت جزءا من هذه السحابة ، فقد مضت لحظات بطيئة قبل أن أتبين خلال الايدى والاثواب والرءوس أن هذا المخلوق الضئيل ٠٠ امرأة تحمل طفلها ٠٠ امرأة ذات وجه نحيل تبدو عظامه خلف طبقة رقيقة من الجلد الشاحب الذى يتكرمش حول العينين والفم ، وتلمع فيه عينان محمرتان كأنها لم تبصر بهما شيئا مفرحا قط وتطرف احدى العينين دائما كأن خطـــرا ما يهددهـــا باستمرار ، وبينما تلتف يدها اليسرى حول الطفل كانت اليد اليمنى تتحرك فى الهواء حركات متتابعة ، كأنها تضرب بهـا الهواء ٠٠ وكانت حركة الذراع متساوقة تماما مع حركة العين ، وكأنها تدفع بتلك الحركة الخطر الذى يهدد العين التى تطرف ، وكانت ترتدى جاكت تايير قديم وتحتها فستان متسخ ، وكان شعرها برغم تلبده وقذارته يبدو أصفر ناعما ، وتكاد خصلاته التى تتحرك دائما حول الرأس القلق أن تخفى نصف الوجه ٠٠

كانت السحابة كلها تتكلم ، على حين تمتد عشرات الايـدى تحاول أن تجذب الطفل من المرأة التى التفت يدها كلها حولـه فى حنان شيد ٠٠ !

« ياناس دى مجنونة ٠٠ حتموت الولد » !!

« لازم ناخد الولد منها ٠٠ وبعدين تـــروح هيه فى ســـقين داهية » !

« أنا شفتها بعنيه عاوزة ترميه تحت العربية » !

« دى حتموت الولد المسكين معاها » !!

وتبينت خلال الايدى الممتدة يدى سيدة ـ كانت ترتدى الملاءة ـ تحاولان فى قوة تخليص الطفل من المرأة،ولكنها سرعان ما هوت على اليد الممتدة ، فى عضـــة دامية ، جعلت صـــاحبة اليد ترتـــد صارخة الى الوراء ٠٠ !

« بقى مافيش فى اللمة دى كلها راجل عارف يخلص الولـد المسكين ده اللى حيموت قدام عنينا كلنا ٠٠ يا ناس دى كانت هى والولد حيروحوا دلوقت تحت العربيات » ٠

« تروح هى فى داهية بس الولد يا ضناى !! » ٠

كان الطفل ينظر من وراء ظهر أمه الى الناس بعينين زائغتين جميلتين فى الوقت نفسه ، وقد تشبثت ذراعاه بعنق أمه ، وانغرست قدماه الصغيرتان فى صدرها ، كانت محاولة المرأة لتخليصه قـد زادته التصاقا بأمه ، وبينما كان صوت بكائه يختنق خلال الأصوات التى تصدر عن السحابة ، كانت عيناه تزدادان صفاء وعمقا خلال قطرات الدموع التى تنساب منهما لتغرق خديه المتوردين ، لم يكن الطفل نحيفا مثل أمه ، الغريب أنه كان وسيما ممتلئا ، ولولا الفزع الذى ترتجف به ملامحه لبدا طفلا رائعا !

ولا أدرى ما الذى جعلنى أتذكر ابنتى فى تلك اللحظة ؟ ربما كان صوت بكاء الطفل ، وربما كانت صورة عينيـــه الغارقتين فى الدموع ٠ كان شعورى! بضرورة انقاذ الطفل قد بدأ يدفعنى لأن أحاول شيئا ٠٠ وتلفت حولى بحثا عن العسكرى ، وحين اهتديت الى « البيريه » وجدته واقفا يحول دون امتداد ســحابة الغبار الى عرض الطريق ٠٠ وبدا واضحا أن كل ما يخشاه هو أن تتعطـــل المواصلات بسبب اتساع الدائرة ٠٠ !

« يا شاويش ·· يا شاويش ·· » !

وضاع صوتى فى زحمة الأصـــوات ·· « هذا الخنزير لن يسمع شيئا ولن يصنع شيئا للطفل » · وفجأة تدخل رجل مسـن ، يرتدى جلبابا صوفيا ويعتم على طاقية بيضـــاء ، وشق طريقـــه بصعوبة وسط الأيدى والأرجل ··

« يا ناس مش كده نقدر ناخد الولد بالحيلة ، أنتم بتخوفوها كده ·· ماحدش يمد ايده عليها » ·

وأخرج الرجل قطعة من الشيكولاته وقدمها للطفل الذى بدت ملامحه فى تلك اللحظة مزيجا من الخوف والسرور ، وبينمـا كانت عيناه لا تزالان تسحان بالدموع كان يمد يدا مترددة الى قطعـــة الشيكولاته على حين كانت يده الأخرى لا تزال تلتف حول عنق أمه وعلى شفتيه الصغيرتين كان طيف ابتسامة يتردد ، كاشفا عن سنة صغيرة اقتلعت حديثا من مكانها فقد كان مكانها لا يزال مخضـبا بالدم !

« خلاص بقى ياخوانا ، كل واحد يروح لحاله ، دلوقت نقدر ناخد منها الولد » ··

ولم يتحرك شخص من مكانه · فقد هدأ اللغط قليلا ، وبدت عيون الدائرة ترقب محاولة الرجل المسن ·

« يا ست من فضلك ، هاتى الولد ، علشان نأكلـــه ·· الولد جعان » ·

ولم يبد على المرأة انها استمعت لكلامه ، أو حتى أحســـت بوجوده ··

كانت عيناها شاخصتين فى الفضاء ، واحداهمـــا لا تزال تطرف ، وذراعها لا تكف عن الحركة الرتيبة التى تدفع بها الخطر !

وحتى حين تكلمت المرأة ، بدت كما لو كانت تخاطب هذا الشيء المخيف المجهول ٠

« مش ممكن تاخد الواد ٠٠ مش ممكن تاخد الواد ٠٠ محدش يقدر ياخد الواد منى » ٠٠

كان صوتها مسلوخا وكأنها رددت هذه الكلمة آلاف المرات ٠٠

وعاد الرجل المسن يتكلم :

« يا ستى حنديلك الولد تانى ٠٠ بس بعد ما ياكل » ٠

وعادت المرأة تردد نفس كلماتها حتى والرجل المسن يتكلم ، كان واضحا أنها لا تعنيه ولا تهتم بوجوده ٠٠ !

كانت الدائرة تزداد التصاقا بالمرأة التى لم تكف لحظة عن الحركة برغم احكام الدائرة حولها ، على حين كان الطفل يزداد التصاقا بأمه حتى بدا كأنه جزء نبت فيها وتفرع منها ، كان يتفرس فى الوجوه التى تحدق به بعينين تزدادان رعبا كلما ازدادت الدائرة اقترابا ٠٠ ! وسقطت قطعة الشيكولاتة من يده ٠٠ !

« والله ما ينفع الا أننا ناخد الولد بالقوة » ٠

كانت الدائرة هى التى تتكلم ، وكانت الدائرة هى التى مدت عشرات الأيدى تنوش الطفل من كل ناحية وتجتذبه ، وندت عن الطفل صرخة مفزعة ، على حين انغرس الطفل فى جسد أمه ، قدماه وذراعاه حتى رأسه ٠٠ دفنه فى صدرها كأنه يريد العودة الى هذا الجسد الذى خرج منه ذات يوم ، وفى هذه اللحظة فقط تحولت ذراع الأم التى كانت تدفع الخطر الى جسد الطفل تحميه من الايدى الممتدة ٠٠ !

وكانت صرخة الطفل وحدها هى التى ردت الأيدى الى أماكنها وأخرست الدائرة للحظات ارتفع خلالها صوت الرجل المسن :

« يا ناس مش كده ·· بالطريقة دى عمرنا ما حنعرف نخلص الولد ·· يا شاويش ·· تعال اطرد العيـــال دول والنـــاس اللى مالهومش لزمه واحنا نعرف ناخد الولد ·· ! » ·

وصرخ الشاويش بصوت غليظ :

« يا خلق المرور حيتعطل ·· كل واحد يـروح لحالـــه وانا حخلص منها الواد ·· المهم دلوقت ·· كل واحد يروح لشغله خلو الطريق يمشى ·· » ·

ولم يتحرك شخص من مكانه ·· وفك الشـاويش حـــزامه الجلدى وراح يضرب أطراف الدائرة من ناحية الشارع ، وفى نفس اللحظة التى تخلخلت فيها الدائرة قليلا وبدت منها ثغـرة ناحيـــة الطريق ، كانت المرأة تمرق كالقذيفة متجهة هذه المرة الى الميدان ، وعلت الصرخات من كل جانب ، صرخات المارة ، وراكبى العربات ، والوجوه التى كانت تطل من نوافذ البيوت المحدقة بالميدان ، أما أنا فقد غطت يداى فى حركة لا شعورية وجهى كله ، وحتى بعد أن فعلت ذلك كنت لا أزال أبصر وجه الطفل كما لمحته فى آخر لحظة ، والمرأة تقتحم به الميدان ·· كان شاحبا كما لو كان يدرك بطريقة غامضة الخطر المقبل عليه ، وكان يطفو امام عينى فوق آلاف المرئيات التى تحيط به دون أن أتبينها ·· كانت جميع المرئيات قد تحـــولت الى مجرد أشياء لا معنى لها ولا لون كمساحات لا نهائية من المياه يطفو فوقها وجه غريق يندفع الى سطح المياه لآخر مرة ، ولم أجرؤ على أن أترك يدى تهبطان ، كان الوجه الغريق الذى يطفو لآخر مرة هو الشىء الوحيد الذى أقوى على احتمال رؤيته ، وأقوى على تذكره

يوما ٠٠ كان على الأقل سيبقى فى خيالى وجها كاملا لا ينقصه سوى سنة مكسورة ولن يضيره أبدا انه كان شاحبا ٠٠ !

ولا أذكر متى بدأت أترك يدى تهبطان ، ربما بعد أن خفت حدة الصراخ !

ربما بعد ان سمعت اصوات العربات تواصل سيرها ؟

وحين فعلت ذلك أمكننى ان المح السحابة من جديد تطارد المرأة التى امعنت فى السير فى امتداد الشرع بعد الميدان ٠٠ !

كانت فرحتى بنجاة الطفل لايعادلها الا تجدد قلقى عليه ٠٠ احسست ان الموت الذى يترصد الطفل يعبث بنا جميعا قبل ان يفعل فعلته ووجدتنى مندفعا الى ملاحقة السحابة ، اننى أحد الذين يعبث بهم هذا الموت ، وأننى مسئول بطريقة ما عن رد هذا العبث ، وأدركت فى اثناء سيرى سيدة سمينة كانت تلهث لتلحق بركب السحابة ، وسمعتها تصرخ بهذه الكلمات دون ان يكون هناك من تخاطبه ٠٠ !

« بقى ياناس مافيش راجل قادر يخلص الولد الغلبان ده ٠٠٠ والنبى حيموت قدامنا كلنا ، ويبقى ياكبدى زى حتة العجينة ، ويرجع كل واحد يخبط ايد فى ايد ٠٠ ياناس دا أنا طول عمرى بتوحم على حتة ولد مش لا قياه ٠٠ وربنا يدى العيال للمجانين دول ٠٠ »

كانت السيدة السمينة تحاول عبثا ان تلحق السحابة التى أمعنت فى السير ، وبدأ لهاثها يشتد ، وخطواتها تبطىء ، وصوتها يختفى ، الرجل المسن كان لا يزال يلاحق السحابة التى كانت تقطع الطريق وثبا بأقدام عشرات الاطفال ، وكان لا يزال يخاطب العسكرى الذى لم يتخل لحظة عن مرافقة السحابة ٠٠

« يا شاويس اطرد العيال دول وهى تقف ، الناس هما اللى مخوفينها يا بنى وبيخلوها تجرى ... دى خايفة من الناس .. »

كنت قد ادركت السحابة ، ومن خلف ظهر الأم ومن خلال الرءوس والأيدى التى لا تكف عن الحركة كان يبرز وجه الطفل مجهدا هذه المرة تربطه قطرات غزيرة من العرق ، وقد تحول الذعر فى عينيه هذه المرة الى حزن مستسلم صامت ...

كان الطفل قد كف عن البكاء وكأنما قد الف منظر السحابة التىتطارده ، بيد ان كفيه الصغيرتين كانتا تتكوران دائما حول جزء من ثياب امه كلما ناشته احدى الايدى أو حاولت اجتذابه . !

وعبثا حاول الشاويش طرد الأولاد ، كان كل طفل يجرى يظهر بدله على الفور طفلان أو أكثر ، كانت الشوارع الجانبية والحارات تمد السحابة فى كل لحظة بعشرات الاقدام التى تجعلها تتكاثف وترتفع ولم تعد السحابة تملأ الطريق وحده ... لقد نبت لها فجأة جناحان فى شرفات المنازل المجاورة والنوافذ التى كانت تفتح على طول الطريق لتطل منها عشرات الوجوه وتبحلق عشرات العيون وتشهق عشرات الانفاس فى فزع كلما مرقت المرأة من طوار الى آخر .

وفجأة كف الشاويش عن متابعة السير ، وسأله الرجل المسن :

ـ « وقفت ليه ياشاويش » ؟

ـ « أنا خلاص ، الدرك بتاعى يخلص هنا » وتنفس الشاويش بارتياح عميق وجلس فى أقرب مقهى . !

وبدا على وجه الرجل المسن يأس فظيع وتبلدت ملامحه ، كان يلهث هو الآخر ، وبدا له الأمر فوق ما تحتمل سنه ولكنه ظل

سائرا ببطء هذه المرة يجتذب أنفاسه فى صعوبة ، وسمعته يلتفت الى قائلا قبل أن أنفصل عنه ٠٠ !

« يابنى ماتسبش الولد ٠٠ حاول تخلصه ٠٠٠٠ انا مات لى ولد تحت عربية من دول ٠٠ يابنى أرجوك ماتسبش الولد يموت » ٠٠

***

كانت سحابة الغبار لاتزال ترتفع مثلما كانت ، وكانت السرعة التى تسير بها المرأة تحيل السحابة الى سباق من نوع غريب ، ولم يتغير شىء سوى الملابس والأقدام والوجوه فقد كانت السحابة ترتدى أزياءها المنوعة من المكان الذى تمر به ، ففى الشوارع ترتدى السترات والقمصان وفى الحارات ترتدى الجلابيب والطواقى واللبد ، وبينما تتحول السحابة فى الحارات الهادئة الى زفة تسمع فيها التعليقات فانها تتحول فى الشوارع المزدحمة بالعربات والميادين الى جنازة تعلو فيها صرخات الفزع ، ولم يكن يبدو ثابتا فى هذا الموكب سوى وجه الطفل وهو يطل من خلف ظهر أمه ٠ كان عرف الوجه المجهد يذيب تراب السحابة ويحيله الى نقاط سوداء تخفى براءة الوجه كما تخفى عناءه الحزين المستسلم ٠٠ ومن خلال الغبار كان الوجه يبدو احيانا ككرة بيضاء ملطخة بالوحل ٠٠ وحينما وجدتنى لم أعد ابصر غير الكرة البيضاء بدأت ادرك مدى العناء الذى اقاسيه ، كما بدأت اكتشف اننى الوحيد الذى لايزال يرافق السحابة منذ نشأتها ٠٠ كان الشعور الغامض باننى اصبحت مسئولا عن الطفل يشدنى الى ذيل السحابة بنفس القوة التى يشد بها الصبى الى بدايتها ومع ان احساسا خفيا باننى عاجز لامحالة عن ان اصنع له شيئا بدأ يدب فى نفسى فاننى لم افكر لحظة واحدة فى الرجوع ٠٠ فقد كنت احيانا ابصر وجه ابنتى الصغيرة يطل من خلف ظهر المرأة واحس بذراعها المجنونة تلتف حولها كالقدر ، حيث لايستطيع

أحد ان يصنع شيئا ، وكنت ابصر فى عينيها الصغيرتين دعوة صامتة لى بألا أكف أبدا عن محاولة تخليصها مهما بدا الأمر صعبا ..

ولم يعد ما افكر فيه فقط هو ان الطفل يمكن أن يموت ، كان السؤال الذى بدأ يدق رأسى بعنف هو « كيف يمكن أن يعيش هذا الطفل » ؟

كانت المرأة قد هدأت من سرعتها ، حين انتهى بنا المسير الى مكان شبه خلوى ، ولم أشعر بأن الجو فى هذا الوقت قد بدأ يذيب كل شىء فى حرارته الا بعد أن لمحت سحابة الغبار توشك أن تنقشع لم يعد هناك سوى اقدام قليلة متفرقة ، كانت قدماى تزدادان ثقلا .. كيف تستطيع هذه المجنونة ان تواصل السير ؟

وبدأت الاحظ شيئا بدا لى رائعا رغم كل هذا العناء واليأس فحين أصبح عدد الاطفال قليلا ، هدأ الطفل ، وبدأ يستجيب لمعاكسات الاطفال الذين يسيرون خلف امه دون ان تحس بهم .. !

وأمكننى ان ابصر فى الكرة البيضاء الملطخة بالوحل عينين تبتسمان برغم اعيائهما الواضح ، وظهرت السنة المكسورة خلف الشفتين الصغيرتين .

« ياللا نروح ... الدنيا حر » قالها الأولاد فى هدوء .

وانقشعت سحابة الغبار تماما .

***

كان الطريق الخلوى لايزال يمتد ، والشمس تحرق الأرض بنيرانها ، ولا يبدو فى السماء ظل سحابة ، ولا يخفق جناح طائر ،

وعرق غزير يبلل جسدى كله ... وقدماى تزدادان طولا وعرضا .. والمرأة لاتزال تغذ السير كأنها شيطان ... وتوقفت فلم أعد أقوى على السير وقلت لنفسى : « لابأس .. لن يصيبه أقل مكروه فى مثل هذا الطريق المقفر .. الآن على الأقل »

كانت ابتسامة الطفل تقطع الطريق الى عينـــى وثبا على حين كان شبح أمه يوشك أن يختفى فى هذا الطريق الطويل الذى لم أقو على مواصلة السير فيه .. !

السبـــاق

كان كل شيء فى البداية ، الشمس ترتفع قليلا عن حافة الافق ، والطيور تغادر أعشاشها لتعبر النهر الى الجانب الآخر ، والقوارب العديدة التى تحمل المشرفين على السباق تتوزع على صفحة النهر ليتابع كل قارب السباح المكلف بمرافقته والمجاديف تضرب صفحة النهر فى ايقاع هادىء يختلط بأصوات الاذرع التى تشق طريقها فى مياه النهر بضربات فيها قوة البداية ، وأضواء الشمس تحيل صفحة النهر فى تلك الساعة المبكرة الى مرآة لامعة تبرز فوقها رءوس سوداء تشق طريقها الى مدينة القاهرة التى كانت تستقبل فى تلك اللحظات صباحا جديدا من شهر مارس عام ١٩٥٤ ٠

كانت رءوس السباحين تصنع بعرض النهر خطا لايكاد يستقيم لحظة واحدة خطا تتقدم بعض أجزائه فتتأخر الاجزاء الأخرى ثم لا تلبث الاجزاء المتخلفة أن تتقدم فيستوى الخط للحظات قليلة ثم لا يلبث بعدها أن يلتوى مرة أخرى ، ولكنه ظل طوال الساعات الأولى

من السباق خطا واحدا لايشعر الناظر اليه من بعيد سوى أنـه خط يستقيم أو يتعرج ٠ !

وبدأ هذا الخيط يتقطع تماما حين بدأت احدى هذه الرءوس تندفع فى قوة الى الامام يتبعها على البعد ٠ رأسان متقاربان على حين كانت بقية الرءوس تتوزع على مسافات متباعدة ، وخلف كـل رأس قارب صغير يسرع أو يبطىء تبعا لحركة الرأس وفى ذيل القارب علم صغير للدولة التى ينتمى اليها السـباح وفى ذات الوقت كانت القوارب البخارية التى تحمل المحكمين الدوليين تنتقل مسرعة بين أجزاء الخط المتناثرة لتدون ملاحظاتها عن سباق النيل الدولى تلك الملاحظات التى تتلقفها على الفور وكالات الأنباء لتقدم اخبار السباق أولا بأول ٠٠٠

وارتفع الرأس الذى كان فى المقدمة عن صفحة المياه فدنا منه القارب المرافق ، وسأل السباح ٠٠

ـ أين مكانى فى السباق ؟

ـ فى المقدمة ٠

ـ وأين نحن فى طريق السباق ؟

ـ اننا تجاوزنا المعادى منذ قليل ، تقريبا قطعنا نصف المسافة من حلوان الى القاهرة ٠

ـ حسن سأظل فى المقدمة دائما ٠

ـ أرجو ذلك ٠٠ ولكنى الاحظ أنك تسبح بسرعة فوق المعدل المطلوب لهذه المرحلة من السباق واخشى الا تحافظ على هذا المعدل حتى النهاية ٠٠ والافضل أن تدخر قواك للمرحلة الاخيرة الفاصلة حين تدور حول الجزيرة وتسبح ضد التيار ٠٠

ـ ان التقدم يمنحنى قوة غير عادية ..

ـ التقدم فى النهاية هو المهـم .. الافضـــل أن تهدىء من سرعتك .

ـ أود لو عصيت أوامرك هذه المرة ..

ـ اننى مدربك وعليك أن تطيع أوامرى .

ـ أفضل لو تأمر لى الآن بشراب دافىء فقد بدأت أشعر ببرودة المياه .

ـ خذ هذه زجاجة من عصير البرتقال .. لم يأت بعد وقـت الشراب الدافىء ..

***

وعاد السباح يشق طريقه البارد الرجراج بذراعيه ، ورأسـه يتحول فوق صفحة المياه اللامعة الى نقطة سوداء لاتكاد تظهر لولا حركات الذراعين المفتولتين اللتين تصنعان حول الرأس نصف دائرة لاتكف أبدا عن الحركة . وكان شعره الخشن يبدو جافا دائما كأن المياه لاتحيط به بينما تختفى عيناه خلف المنظار السميك الذى يلتف حول رأسه ليحمى عينيه من المياه ، وفى الخلف كانت قدمه تدفـع المياه فى ايقاع ثابت يظهر تباعا فوق صفحة النهر فى صوت تموجات لاتكاد تنتهى حتى تبدأ ولا تكاد تتخلف عن السباح حتى تلحق به ..

ومد السباح نظره لحظة الى الامام فأبصر مياه النـهر تمتد أمامه الى ما لانهاية بينما كانت عيناه تخطفان خلال حركة رأسه فوق المياه صورة شاحبة لأشجار الكافور والسنط وهى تسير بحذائه على امتداد الشاطىء وتحجب خلفها حقول البرسيم والقمـــح المترامية الاطراف ، من مكانه فى النهر كانت ترتسم فى رأسه صورة شاحبة

لخط حلوان الحديدى وهو يمتد فى قلب هذه الحقول والقطار يقطعه فى سرعة فائقة وفى داخله يجلس عشرات الركاب على مقاعدهم المتقابلة ، وعيونهم تتوزع نظراتها القلقة بين صحف الصباح ومناظر الحقول المسرعة دائما الى الوراء · كيف يمكن أن يدرك هؤلاء الركاب أنهم يقطعون المسافة من حلوان الى القاهرة بطريقة فذة هو نفسه قطع هذه المسافة مئات المرات بهذه الطريقة ·· ولم يكن يشعر وقتها بغير السأم يستبد به فيحاول أن يتخلص منه بالتطلع فى وجوه الركاب ويحاول أن يجد نوعا من المتعة فى مشاهدة هذه الوجوه التى تكون فى مجموعها كرنفالا من الجمال والقبح والصحة والمرض والابتهاج والكآبة والشباب والشيخوخة كانت مسلاته الوحيدة حين ذاك ان يتفرج على هذا الكرنفال بينما كان هذا الكرنفال يبدو غير مكترث به على الاطلاق ، كان كل فرد فيه يبدو كعالم قائم بذاته والقطار وحده هو الذى يجمع هذه العوالم المتباعدة كل صباح ، ولا يكاد القطار يقف فى نهاية الخط حتى تتلاشى هذه العوالم فى شوارع المدينة الكبيرة ، وفكر أنه ربما كان هؤلاء الناس جميعا يفكرون هذا الصباح فقط بطريقة واحدة ·· فجميع الصحف تحمل فى عناوينها الرئيسية انباء السباق ، واذا جرى أى حديث بين راكبين فلاريب بأنه سيكون عن السباق وعن احتمالات الفوز بالنسبة للمتسابقين ، سيعرف هذه المرة كيف يجذب انتباه هذا الكرنفال الصامت وكيف يجعل هذه العوالم المنفصلة تلتقى فى لحظة نادرة ·· حقيقة كم ستكون لحظة نادرة تلك التى تتحقق فيها هذه المعجزة بالنسبة له ···· أن يكون هو الفائز الأول فى سباق النيل الدولى ·· ساعتها سوف تحدث اشياء غريبة حقا ·· سوف يقطع المذيع البرنامج العادى ليعلن النبأ ، وسوف يقطع أى متحدثين كلامهما ليصغيا الى النبأ ، وتبطىء اللقمة فى طريقها الى الفم ، وقد يكف اثنان عن المشاجرة ، ويتغير مجرى أى حديث بين كل الجماعات

القريبة من الراديو ، وهكذا يصبح الفـــائز الأول فى تلك اللحظـة السحرية شيئا عاما فى حياة كل الناس كالشمس والهواء ، وضوء القمر · وفى صباح اليوم التالى تنشر الصحف صورته لا بل سوف تنشر فى عصر اليوم فى صحف المساء ، ··· ولحظتها تلتقى ملايين العيون فوق صورته وسيتعرف على الصورة أناس لا حصر لهـم ، زملاؤه فى الدراسة ، أساتذته ، أصحاب الدور الذى سكن حجرة منها وهو تلميذ ، أصحاب الدكاكين التى كان يشترى منها حاجاته، وبنات الجيران اللاتى أحبهن ، سيتعرف جميع هؤلاء على الصورة التى ستثير فى قلوبهم مشاعر لاحصر لها وسوف تحدق فيها عيون كثيرة مجهولة وسوف يقال كلام كثير لن يكون بمقدوره أبدا أن يعرفه ويحس بسعادة غامضة مجهولـــة تبعث الدفء فى قلبه وفى مياه النهر ····

ـ أريد أن آكل شيئا ···

ـ أنا معد لك وجبة من شرائح الدجاج ··

ـ أين مكانى فى السباق ؟

ـ أنت لاتزال فى المقدمة ·

ـ هل بدأ أحد يقترب منى ·· ؟

ـ هذا لايهم · هناك سباح يونانى يسبح فى مســـتواك فى عرض النهر ·· انك تسبح الآن بأقل من معدلك المعروف ···· وهذا سيتيح لك فى النهاية أن تحقق الفوز ·· انا مســـرور لانك تنفذ خطتى بدقة ·

ـ خطتك ؟ حسن ·· دعنى آكل أولا ·· أليس الطعام جزءا من خطتك ؟ ولكنى بعد ان اتناوله لن أترك أحدا يتقدمنى ابدا ··

ـ أنا لا أخاف عليك الا من هذا الحماس ... !

ـ أمى كانت تخاف على وأنا طفل من البرد ، وبعد أن كبرت صارت تخاف على من الغرق ، ولولا هذا الحماس ماكنت هنا اليوم !

***

وعاد السباح يشق طريقه البارد الرجراج ، كانت حركات ذراعيه تؤلف مع حركات قدميه هذه المرة ايقاعا حادا ، كان رذاذ الماء يرتفع حوله فى قوة ثم يسقط الى الخلف غارقا فى هذه الدوائر التى تلاحقه دائما ... !

ولم يعد يفكر فى شىء ، كان النهر قد تضاءل أمام عينيه ولم يعد يبصر منه سوى هذه المسافة التى تفصل بينه وبين السباح اليونانى ، كان يبصر هذه المسافة تتضاءل شيئا فشيئا كلما رفع رأسه ليحدد مكانه من عرض النهر كان يسبح بميل جهة الشاطىء الآخر حتى لايصبح عرض النهر فى صالح منافسه وبدت له أشجار الشاطىء الآخر أكثر وضوحا فى نفس الوقت الذى بدا النهر أمامه كطريق خال من المارة .. ويلمح فى خاطره أن الفوز ليس له غير صورة واحدة .. هو أن يظل النهر أمامه هكذا خاليا من كل أحد فهذا معناه أنه وحده فى المقدمة .. وبدا له الأمر سهلا للغاية .. غير ان صورة أخرى تبرز فى رأسه فجأة .. صورة سباح يبرز من الخلف فى نقطة ما من هذا النهر العريض ويندفع الى الامام بقوة هائلة ان عليه ان يسبق دائما ذلك المجهول الذى قد يبرز فجأة من الوراء وفى أى لحظة ، ويشتد احساسه بهذا المجهول الذى يكمن فى الوراء دائما والذى قد يتقدم عليه فى أية لحظة ، ويتحول هذا الاحساس الى ذراعيه وقدميه فيزداد الرذاذ المتساقط الى الخلف وتتسع حلقات الدوائر التى تلاحقه دائما ، ويصيح المشرف وهو يحاول جاهدا أن يقترب منه بزورقه .. !

ـ قلت لك لا داعى لأن تبدد طاقتك بهذا الجنون ·· ان المسافة بينك وبين أول سباح تزيد الآن على ثلاثمائة متر ·· لا تنس أنـــك سوف تسبح ضد التيار فى النهاية ·· !

ـ سأحافظ على هذا المعدل ···

ـ يمكنك أن تحقق النصر بأقل من هذا المعدل ··

ـ سأهدىء قليلا من سرعتى ··

***

وعاد يسبح بسرعة أقل قليلا ·· وأبصر النهر يمتد أمامـــه صافيا ورياح مارس الخفيفة تصنع فوقه أمواجا صغيرة تنعكس عليها أشعة الشمس فيبدو سطح النهر كطريق زجاجى رجراج ·· طريق خال من المارة ··· وان يكون فى المقدمة فى مقدمة هذا الطريق ، فمعناه أنه لم يعد أمامه سوى الفوز ·· لا شىء يفصـــل بينه وبين الفوز غير هذه المياه اللانهائية ان الصراع يصبح بينه وبين النهر فقط ··· انه منافسه الوحيد ·· وحين يقهره يصبح أعز صديق ·· ويلمح فى خاطره للحظة ·· أن النهر لا يمكن أن يـــكون عدوا أو صديقا لأحد وأنه لن يحس به أبدا لو نال الجائزة أو غرق بين أمواجه الصافية ، وفجأة يعاود الاحساس بذلك المجهول الذى يكمن دائما فى الوراء ·· والذى يمكن أن يندفع بقوة هائلة الى الامام ·· ان هذا المجهول هو منافسه الحقيقى ·· وان عليه ألا يترك فرصة أبدا لهذا المجهول ·· وبلا شعور كانت سرعته تزداد بين لحظة وأخرى ·· وأمكنه ان يلمح أسرابا من الطيور تعبر النهر فى نظام بديع ومع ذلك فقد كان هناك طائر فى المقدمة ·· وغـــابت الطيور عن عينيه وراح يفكر أنها تستطيع أن تهبط فى أى مكان حين يحل بها التعب ·· وأن طائر المقدمة يهبط أولا ثم تتوالى بعده الطيور ·· ان عليه أن يسبح طوال الوقت بهذه السرعة حتى يظل دائما فى المقدمة ··

حتى يبقى وحيدا دائما وسط هذه المياه المترامية ·· ان الفوز على الجميع ليس له غير صورة واحدة أن يبقى وحيدا دائما ·· ويضايقه للحظات هذا الاحساس بأنه سيبقى وحده ·· ويبصر أمه تجلس بجوار المذياع فى انتظار أنباء السباق ·· صحتها لا تساعدها على أن تترك البيت ·· انها لاتزال تخاف عليه من الغرق · ربما كان المذياع يقدم بين ساعة وأخرى أنباء عن السباق لاشك أنها تبتسم الآن فى سعادة ·· وتأمر اخاه الصغير أن يكف عن الضجة حتى تسمع جيدا أنباء السباق ·· لعلها تقرأ الآن آية الكرسى حتى تحفظه من عيون الحاسدين . كانت دائما تخاف عليه من عيون الناس ، ولكنه يحس فى هذه اللحظات أنه فى حاجة الى مئات العيون لتراه وهو فى مقدمة السباق ·· لا يريد أن يبقى وحيدا بين هذه المياه اللانهائية ·· لا شك ان جماهير كثيرة تنتظر فى مدخل القاهرة ·· سوف يكون رائعا أن يسبح فى نهر يمتلىء شاطئاه بآلاف المشاهدين انهم سوف يشعرون بالجهود التى يبذلها لكى يظل فى المقدمة ·· انهم أفضل من هذه الاعشاب النيلية التى لا تدرى اذا كان الذى يسبح أمامها رجل أو سمكة ·· عليه أن يحافظ على هذا المعدل من السرعة لكى يصل المدينة أولا ··· ويسأل مدربه ···

ـ أين نحن من القاهرة ؟

ـ القاهرة تقترب ·· بيننا وبينها نصف ساعة تقريبا ·· !

ـ وأين مكانى فى السباق ؟

ـ المسافة بينك وبين أقرب سباح تزيد على خمسمائة متر تقريبا ·

ـ سوف أسبح على ظهرى بعض الوقت قبل أن أدخل المدينة ···

ـ تستطيع ذلك لمدة ثلث ساعة فقط تستعد بعدها لأهم جولة فى السباق ٠

***

ولم يعد يبصر النهر ٠٠ كانت السماء تبدو أمام عينيه كبحيرة من الضوء ويسبل أجفانه قليلا حتى لا يبهرها الضوء ٠٠ ويشعر بالراحة تتسلل الى جسده ٠ فى طوقه ان يسبح بهذه الطريقة ساعات طويلة دون أن يشعر بالتعب ٠٠ كانت متعته أن يسبح بهذه الطريقة ـ حين لا يكون مشتركا فى سباق ـ ساعات طويلة يشعر خلالها أنه عاد طفلا تهدهده الموجات كما كانت تفعل أمه وهو صغير ٠٠٠ لعل أمه قد تعبت من الجلوس بجوار المذياع ٠٠ ولعلها انتقلت الى فراشها فى حجرة النوم ورفعت مفتاح الصوت لتسمع بوضوح من فراشها ٠٠ منذ تعلم السباحة وهو يشعر أن النهر قد أصبح أمه الثانية ويزداد هذا الشعور حدة حين يسبح على ظهره ويشعر بالمياه تحته لينة رجراجة ناعمة ٠٠٠ ويتذكر أن أمه يمكن أن تنام وهى متمددة على فراشها انها كبيرة السن ٠٠ و ٠٠ ولكن من المستحيل أن تنام هذه المرة ٠٠ فهى تريد أن تسمع أخبار ولدها ٠٠ والمذياع مرتفع الصوت ٠٠ ويسمع صوت المذياع يرتفع أكثر عن ذى قبل ٠٠ وتصدر عنه موسيقى صاخبة عنيفة ، وتزداد الموسيقى حدة وصخبا وأمكنه أن يميز خلال هذه الموسيقى أصواتا واضحة ٠٠ وخيل اليه أن أمه تغنى له ٠٠ تغنى له مع الموسيقى ؛ كان صوتها ممتلئا شبابا وقوة ٠٠ !

ويسمع اسمه يتردد بوضوح خلال الغناء ٠٠ لم تكن أمه تغنى وحدها ٠٠ كان معها كورس ضخم يردد الاغنية التى يؤلف اسمه أحد مقاطعها ويشتد غناء الكورس ويختفى خلاله صوت أمه ، ويشعر ان جميع أجهزة الراديو فى شارعهم تردد نفس الأغنية ، ويمتد

يقترب من كوبرى قصر النيل حيث يصل النهر الى أقصى اتساعه، ويبدأ الشاطىء العائم يتخلخل قليلا وسط النهر وتبدأ القوارب التى تؤلفه تجنح جهة الشاطىء ، ويفاجئه شعور بالارتياح لم يتبين مبعثه ودون ما تفكير عاد يسبح على ظهره ، وعاد يشعر بالمياه اللينة تترجرج تحته ، وبحيرة الضوء يسبح فيها قرص الشمس قويا متوهجا ، كان ضوؤه ينعكس على منظاره المائى فيوشك ان يغمض عينيه ، ويفكر ان أمه لابد قد نامت وهى تستمع الى الراديو ، انها كبيرة السن ولا قدرة لها على الانتباه طويلا الى شىء ، والفراش عادة يخفى النوم بين طياته ، كان من عادته أن يتمدد الى جوارها على نفس السرير ، وسيكون أول شىء يفعله حين يعود الى البيت أن يرقد فوق هذا السرير أسبوعا كاملا ، وحين تحاول أمه أن توقظه فسوف يتظاهر بالنوم كما كان يفعل وهو طفل واذ ذاك سوف تفعل معه أمه نفس الشىء الذى كانت تفعله وهو طفل ، سوف تحاول أن تدلك جسده ، تدلك كتفيه وذراعيه ثم تنزل الى فخذيه ويستمر هو فى تناومه لتستمر هى فى تدليكها حتى اذا ضايقها استمراره فى النوم تحول التدليك الى تقريص فى ذراعه وكتفه ·· ويخيل ان أمه تقرصه حقا ·· ويتكرر القرص ، ويفكر انه من الجائز أن تقلصا يهاجم بعض عضلات ذراعه اليمنى التى تركز فيها القرص · فيسبح بذراعه اليسرى وحدها مريحا ذراعه المتصلبة · كان فى تلك اللحظة يقترب من كوبرى قصر النيل · كان الكوبرى المكلل بالجماهير يبدو كقوس من أقواس النصر ، وتبصر الجماهير ذراع السباح المتصلبة مرتفعة قليلا عن سطح الماء كأنها مرفوعة لتحيتها ، وتنبعث عن الكوبرى هتافات مدوية ويخيل الى السباح أن الكوبرى يندفع نحوه فى سرعة كبيرة ·· وحين يقترب من الكوبرى يجد ذراعه المتصلبة تلوح للجماهير فى مرونة ويسر يعود يضرب بها صفحة المياه بقوة ويعود الى حركات يديه وقدميه ذلك الايقاع الراقص ·· وحين يتجاوز كوبرى قصر النيل يجد قوس النصر الذى كان يسبح تحته يتحول

مرة أخرى الى شريط بشرى يمتد فوق الشاطىء الغربى للنيل شريط يهتف ويلوح وتتقصف تحت أقدامه الاعشاب الجـــافة ٠٠ ان كل شارع فى المدينة يدفع الى الشاطىء بنصيبه من هذا الشريط الذى لا يمكن أن ينتهى أبدا بهذه الطريقة ٠٠ الذين ترهقهم متابعة السباق ينصرفون بينما يقبل الآخرون دائما ليظل فى مقدور هذا الشـــريط البشرى أن ينظر فى دهشة مستمرة وأن يلوح بحماس لا يفتر ٠٠ انه يجدد خلاياه دائما كالجسد ولن تتعب أقدامه فى أية لحظة لأنه يملك آلاف الأقدام التى يغيرها دائما ٠٠ أما هو فان قوته يجب أن تبقى دائما فى قوة هذا الشريط ويشعر أنه هو الذى يصنعه وأنه هو الذى يقوده فى طريقه حول النهر ان هذا الشريط لا يمتد أبدا الا حين يكون هناك بطل ٠٠ ٠بطل يسبح فى المقدمة ٠٠٠ بطل لا يتعب ٠٠!! ويبصر النهر يمتد فى تلك اللحظة أمام عينيه طويلا وعلى مدى البصر يتراءى له كوبرى امبابة الذى تنتهى قبله الجزيرة وتبدأ عنده المرحلة الأخيرة الفاصلة ، ويفكر فى أن يزيد من سرعته ليجد نفســه عند نهاية الجزيرة ولا يبقى الا ان يدور حولها ليواجه التيار ويواجه فى نفس اللحظة الفوز !

وراح يضرب صفحة المياه بذراعين مشـــدودتين الى الامام ورجلين مشدودتين الى الخلف محاولا ان يضاعف ســرعته ولكنه يحس على الفور بأن ذراعيه تتثاقلان فجأة وتتضخمان ٠٠ وأن مياه النهر تتحول الى زيت ثقيل لزج يملأ أنفه برائحة غريبة ٠٠

وعاد يسبح فيه بنفس المعدل الذى كان يسبح به ، وفى ذات اللحظة انفجر فى داخله الخوف من المجهول الذى يكمن فى الوراء دائما ٠٠

ويسأل المدرب المرافق ٠٠

ـ اين مكانى فى السباق ٠٠ ؟

ـ المسافة بينك وبين أول سباح فى الخلف تزيد على مائتى متر منذ ساعات وقد وصل كلاكما الى أقصى معدل له ..

ـ أشعر بالجوع ..

ـ خذ هذه التفاحات ...

***

بدأ طعم المياه الذى كان يتسرب أحيانا الى فمه يبدو متغيرا .. كما بدأ شعوره بكثافة المياه يزداد حدة .. ويفكر .. ان النصر لمن يعرف كيف يسبح طويلا فى هذا الزيت اللزج ... ترى هل بدأوا جميعا يشعرون بأن المياه تتحول الى زيت .. ؟

ويخطر فى رأسه أن الشريط البشرى وحده هو الذى لا يمكن أن يشعر أبدا بأن النهر مملوء زيتا .. انه يمتد فوق أرض صلبة .. أرض صلبة ان أحدا لا يفكر أبدا ماذا كان يحدث لو ان الأرض لم تكن بهذه الصلابة وربما كنا نتحول الى سماك .. السمك لا يتعب فى النهر والطيور لا تتعب فى الهواء .. الانسان وحده يصر على أن يمشى فى البر ، وفى البحر وفى الهواء .. أمه لابد قد نامت الآن .. جميع الناس ينامون فى الظهيرة .. فى النهر تتشابه كل الأوقات ولايستطيع أحد أن ينام ... يستطيع أى واحد فى الشريط الممتد على الشاطىء أن يمضى دون ان يشعر به أحد .. ان يذهب الى بيته وينام .. وبمقدوره أن ينام على الشاطىء .. انه وحده لا يستطيع ذلك أبدا .. ولكنه لا يضيره ذلك ما دام لا يريده .. انه مختلف عن كل هؤلاء الناس ، الابطال فى كل مكان يختلفون عن الجميع .. حتى فيما يريدون .. ويشعر بأن ريقه يجف .. وان المياه التى تتسرب الى فمه تعجز عن أن تبلل هذا الجفاف .. وبأن أطرافه تبرد .. ويشرب برادا من الشاى .. وتظل أطرافه باردة

لا تزال ذراعاه متضخمتين ٠٠ انه يعرف ان فى قدرته ان يسبح ساعات طويلة بهاتين الذراعين المتضخمتين ٠٠ النهر بمتد أمامه كطريق لا نهاية له ويدفن وجهه فى المياه ويسبح كقارب مقلوب ٠٠ بهذه الطريقة يمكنه ان يتقدم أكثر دون أن يبصر النهر الا فى لحظات خاطفة يدفن بعدها رأسه من جديد ٠٠ صورة النهر الممتد تملؤه بالعناء لا يريد أن يرفع رأسه الا حين يدور حول الجزيرة حين ذاك لن يبصر أمامه سوى النهاية ٠٠ نهاية السباق ونهاية الصراع ٠٠ لو أن أحدهم سبح بأكثر من معدله لكسب السباق ٠٠ ! ويفكر أن يعاود السؤال عن مكانه فى السباق ولكنه لم يفعل ، ماذا لو عرف أن أحدهم يسبح الآن بأكثر من معدله ليس فى قدرته أبدا أن يزيد من سرعته ، ولن يربح من هذه المعرفة غير اليأس ٠٠ بمقدوره أن يعرف مكانه من السباق لو لاحظ الشريط البشرى الممتد الى جواره ! لو تقدمه سباح آخر فسوف يتمزق الشريط على الفور ، ولم يهتم بهذه المحاولة ٠٠ بدأ يضيق بهذا الشريط الذى يمكن أن يتمزق فى لحظة كهذه ٠٠ وفكر أن هذا الشريط نفسه يمكن أن يصنع نشيدا آخر فيه اسم السباح المتقدم ٠٠ وود لو يصيح فى هؤلاء الناس أن يكفوا عن هذا الصراخ ٠٠ أمه وحدها هى التى ستظل تغنى له أغنية تحمل اسمه وحده حتى ولو كان فى نهاية السباق ٠٠ كانت تحبه دائما قبل أن يصبح سباحا مشهورا ٠٠ ولن تكف أبدا عن حبه ٠٠ كم أصبح يضيق بهذه الضجة التى تلاحقه ٠٠ لماذا لا يتركونه يسبح فى هدوء ؟ و ٠٠ و ٠٠ ويخيل اليه أن أمنيته تحققت فجأة ٠٠ كانت الهتافات تبعد عن الشاطىء شيئا فشيئا ٠٠٠ وحين يرفع رأسه يدرك انه بدأ يدور حول الجزيرة فى منطقة ينحدر فيها الشاطىء فجأة ويتعذر المسير ٠٠ ولم يعد يبصر فى هذه المنطقة سوى أعشاب قديمة حائلة تغرق سيقانها فى النهر وتنبعث منها روائح غريبة ٠٠ ويغمر المكان صمت ثقيل تبرز فيه ضربات المجداف المرافق رتيبة

هادئة ، ولا يجد فى نفسه ادنى رغبة فى أن يتحدث الى مدربه ·· فقط يتناول الطعام الذى يقدمه له فى صمت ·· لم يجرؤ على أن يستفسر عن مكانه فى السباق ·· ولم يتطوع مدربه بالحديث عن شىء ·· متى ينتهى هذا الجزء المنحدر من الشاطىء ؟ ويتذكر قصة قرأها وهو صبى عن « رحالة ضل فى الصحراء وأمضى عدة أيام يسير وحده فى أرض لا يفترق فيها شبر عن آخر ! كانت رؤية الطيور فى السماء تبعث فى نفسه أملا غامضا سرعان ما يختفى مع غياب آخر طائر عن عينيه » ·· متى ينتهى هذا الجزء المنحدر من الشاطىء؟ لو كان الشاطىء كله منحدرا كهذا الجزء لما وصل الى هذه المنطقة ·· !

الروائح الغريبة تملأ أنفه ·· والصمت الثقيل يبرز أكثر الأصوات خفوتا ·· أصوات طيور وهى تلتقط بمناقيرها الاسماك الصغيرة ·· وأصوات الاعشاب حين تعبث بها خفقة هواء عابر ·· وأصوات المياه التى يغوص فيها بذراعيه وقدميه ·· وشيئا فشيئا تختفى أصوات الطيور والعشب والمياه حين يستدير الشاطىء ليتم دورته حول الجزيرة ، ويستدير معه السباح ليواجه التيار فى مجرى ضيق ·· وليواجه نفس الشريط البشرى الذى يغطى الشاطىء بمئات السترات والمعاطف والجلابيب ، كان الشريط قد أصبح أكثر كثافة · كان يغطى شاطئى النهر المتقاربين وكان يتسع ليغطى جزءا من الشارع ويرتفع ليغطى نوافذ البيوت المطلة على النهر وشرفاتها ويقترب منه أكثر ليطل من نوافذ العوامات الراقدة بجوار الشاطىء ومن شرفاتها ·· وينحرف السباح جهة الشاطىء ليتجنب مقاومة التيار فى منتصف النهر ·· ويمكنه أن يبصر فى وضوح الوجوه التى تتزاحم فى شرفات العوامات ·· طفلة صغيرة محمولة على ذراعى أمها تقذفه بباقات من الورد ·· رجل عجوز يرتفع بنصف جسده الاعلى ليشاهده بينما بقى نصفه الاسفل مشدودا الىمقعدهذى

العجلات ·· رجال بملابس كاملة ·· وآخرون يبدو انهـــم تركوا فراشهم فجأة ·· فتيات يصفقن ·· نساء بثياب البيت ·· وخادمة سوداء تطل من نافذة المطبخ فى احدى العوامات وتطلـــق زغرودة طويلة ·· ويشعر السباح أن المياه الزيتية تزداد كثافة وتتحول الى مادة ثقيلة كريهة كالشحم ·· وتبدو جميع الوجوه خلال الشحـــم الذائب ·· متشابهة وباهتة ونائية ·· كان يحلم بعوامة على النيل يقضى فيها بقية حياته لو ربـح الجائزة ·· هنـــاك أناس كثيرون يملكون عوامات كثيرة دون ان يسبحوا فى هذا الشحم الذائب يا له من حلم سخيف ·· ذراعاه تثقلان ·· انهما تحملان أكداســـا من الشحم ·· ؟ لو تخلصت ذراعاه من هذا الشحم لامكنه أن يســـبح بسرعة هائلة ؟ مياه النهر تبرد وتوشك أن تتجمد ·· أطرافه كلها تبرد ·· الناس فى العوامات لا يشعرون أبدا بأن المياه باردة ·· انهم يطلون من شرفات العوامة ويصفقون ·· أصبح يسمع فقط تصفيقهم ·· ان التصفيق يكف فيعرف أنه ابتعد قليلا عن العوامة ربما كانوا نائمين قبل ان توقظهم ضجة السباق وحين تمر الضـــجة يعاودون النوم ·· النوم ·· أمه الآن نائمة ·· كانت تحرص على ألا توقظه حين ينام ·· متى يجىء دوره لينام ليستريح من هذا العنـــاء ·· الشريط البشرى الممتد على الشاطىء لا يظهر واضحا الا فى الاماكن التى لا توجد بها عوامات ·· انه يغطى شاطىء النهر ويجعل رؤية الأرض متعذرة تماما ·· الكوبرى الذى ينتهى عنده السباق لا يزال بعيدا ·· انه يبدو عند نهاية الافق وأحيانا يختفى خلف أمواج النهر التى تزداد صلابة وارتفاعا ·· !

العوامات تتباعد ·· والشريط البشرى يغطى أرض الشاطىء ·· يغطيها كلها ·· لو أنه يجد منطقة خالية من هذا الشريط اللعين قطعة من الأرض ، يمكنه أن يتسلل منها فى هدوء ·· لينام ·· أرض الشاطىء صلبة ويمكنه أن يغمض عينيه فوقها وينام دون ان يخشى

الموت غرقا ٠٠ ! هذا الشريط اللعين ٠٠ يستطيع أى واحد فيه أن يمضى فى هدوء ليذهب الى بيته ٠٠ ليجلس فى أقرب مقهـــى ٠٠ الباعة المتجولون يكفون عن النداء حين تفرغ بضاعتهم ويعودون الى بيوتهم ٠٠ كلهم يفعلون ذلك فى هدوء ودون أن يعترض طريقهم أحد ولكنهم قبل أن يغادروا المكان يأتى آخرون دائما ليحتلوا نفس المكان ٠٠ ليغطوا كل شبر فى أرض الشاطىء ليخفوها دائما عن عينيه ٠٠ ان هذا الشريط هو الذى يقوده فى هذا الطريق الرهيب ٠٠ هو الذى يرغمه على أن يكون بطلا ، ما أسخف ذلك كله ٠٠ ! لماذا لم يحاول أى واحد منهم أن يفعله مثله ؟ لماذا لا يفكر الجميع فى أن يكونوا أبطالا ؟ لماذا يؤثر الجميع أن يحيوا فى هدوء ٠٠ ويتذكر فى تلك اللحظة رفاقه فى السباق ٠٠ لم يفكر فى أن يكون أحدهم قد تقدمه أبدا ٠٠ فكر فى أنهم مثله متعبون وحمقى ٠٠ ويحلمون بالنوم فوق أرض صلبة ٠٠ الشريط اللعين يقف وحده فوق الأرض الصلبة ٠٠ كانت تقتله لا مبالاة الناس والآن يقتله اهتمامهم ٠٠ ! لماذا لا يكفون عن مطاردته ٠٠ ؟ الفوز ٠٠ الجائزة ٠٠ النوم ٠٠ أمه ٠٠ العوامة ٠٠ ذراعاه تتحولان الى مجدافين لا يدرى من الذى يحركهما ٠٠ وعنقه يتحرك فى صعوبة ٠٠ وأمواج النهر تكبر وتكبر وتحجب عنه الشريط البشرى ٠٠ ويشعر أنه أصبح وحده تماما ٠٠ طافيا فـــوق المياه الزيتية ٠٠ الشريط البشرى يغرق فجأة فى النهر والشـــاطىء ٠٠ يغرق هو الآخر ، لم يعد هناك سوى المياه ، سوى الزيت ٠٠ انه أصبح وحده ويستطيع أن يترك النهر ولكن أين الشاطىء ٠٠ انه بعيد جدا لا يكاد يبصره ٠٠ لقد أبصر فى وضوح شديد وجه صبى ريفى عار تماما من ملابسه ، وحاول أن يتذكر اسمه عبثا ٠٠ لم يتذكر سوى أن هذا الصبى قد أنقذه مرة من الغرق وهو يتعلـــم الســباحة فى الترعة الصغيرة التى كانت تمر بقريتهم وأبصر فى نفس اللحظـــة وجه الفلاحين الذين أتوا من الحقول القريبة ســـاعة انقاذه وبين

الوجوه العديدة أبصر وجه أمه ٠٠ كانت تبكى من الفرح وتتحسسه بيديها لتتأكد من أنه لا يزال حيا ٠٠ ويمتلىء شاطىء الترعة بأناس كثيرين وراح يحدق فى الوجوه التى تملأ أرض الشاطىء ٠٠ بعض هذه الوجوه كان غريبا تماما ٠٠ وبعضها كان يقول له مبروك وكان وهج الشمس يبهر عينيه فأغمضهما وألقى بنفسه فوق أرض الشاطىء وأحس لحظتها أن الأرض صلبة ٠٠ ! كانت النافذة المسدلة الستائر تلقى الى أرض الحجرة الفسيحة بالمستشفى ضـوءا خفيا وفى هذا الضوء كان يبدو عشرات الصحفيين والزوار وهم يلتفون حول سرير سرير الفائز الأول فى سباق النيل الدولى ٠٠ كانت عينا السـباح الفائز تنتقلان بين هذه الوجوه وبين عناوين الصحف التى تحمل فى صدرها صورته « تمساح مصرى يقهر النيل » « روح الفراعنة تتقمص السباح المصرى » « الارادة والعناد = الفوز » ٠٠

وسأله الصحفى الذى كتب العنوان الأخير على رأس مقاله :

ـ هل يمكن أن توضح للقراء أهم الاسباب التى جعلتك تصمد حتى النهاية وتنفرد بالفوز فى سباق لم يتمه سوى عدد قليل ٠٠ ؟

وصمت السباح وارتسمت على شفتيه بسمة شاحبة ثم قال :

ـ ألا تـرى انك تحدثت عن هذه الأسـباب بأفضـل مما استطيع ٠٠ !

وتطوع صحفى آخر بالاجابة ٠٠

ـ لن تكون هناك أسباب أهم من ارادة الفوز ٠٠ وراء كـل بطل عظيم ارادة عظيمة ٠٠ !

وسأل صحفى آخر :

ـ أليس فى حياتك امرأة ؟

ونظر السباح الى سيدة عجوز كانت تجلس على مقعد بركن الحجرة وعيناها مثبتتان عليه وشفتاها تتمتمان بدعاء خافت ..

ومرة أخرى لاذ بالصمت وأحس أن اجابته الثانية لن تكون أفضل من الأولى ..

وتطوع نفس الصحفى بالاجابة ..

ـ ان الحب الكبير لا يقل أهمية عن الارادة الكبيرة فى خلق البطل ..

وشعر السباح بغيظ صامت ثم ارتسمت على وجهه سمات الجد حين سأله صحفى كان صامتا طوال الوقت ..

ـ ما الفرق بين النصر والهزيمة ؟

فأجاب بحماس طارىء ..

ـ أعتقد أنه فى كثير من الاحيان يكون دقيقا جدا الى الحد الذى يمكن أن يتحول كل منهما الى الآخر بطريقة لا يمكن التكهن بها !!

فعاد نفس الصحفى يسأل :

ـ هل كان من الممكن أن يتحول نصرك الى هزيمة ؟

فأجاب وعلى شفتيه ابتسامة شاحبة ..

ـ أجل ..

ـ ولماذا لم يحدث ذلك ؟

ـ لست أدرى .. ! وفى نفس الوقت كان يمتد فى رأس السباح شريط بشرى طويل كان يشعر نحوه فى لحظة واحدة بحب كبير وبقدر هائل من السخط ..

قريـــة أم محمـــد

قريتنا كبيرة ، والناس فيها كثيرون ، ولأول وهلة تحس أن كل شيء فى قريتنا يشبه بعضه بعضا ، فالملابس التى يرتديهـا الناس تتشابه · والدور كلها من طابق واحد ، واللهجـــة التى تتردد على الألسنة واحدة ، والحقول والبهائم وحتى سحنات الوجوه لاتختلف كثيرا ·· !

ولو عشت فى قريتنا اسبوعا واحدا لأدركت ان هذا المجتمع ينقسم انقساما فريدا فى نوعه ، فهو ينقسم بحسب السن والجنس الى مجتمعات صغيرة لكل واحد مكانه ، ومنطقه ، ونظرته للحياة ·· فالاولاد يؤلفون مجتمعا مكانه المفضل اجران القمح ، وزمانـه المناسب أواخر النهار وأوائل الليل ·

والنسوة يؤلفن مجتمعا آخر مكانه « الموردة » حيث يمـلأن الجرار ويغسلن الملابس ··

والشـــبان يلتقون كل ليلة فى دكان « عوضـــين » يدخنون ويتراهنون ويضحكون من أعماق صدورهم ..

والرجال الكبار يؤلفون مجتمعا قلما يتجانس ويلتقى أحيانا فى المسجد أو فى المنادر التى لا تضاء الا فى المناسبات .

***

وفى ذلك اليوم كانت القرية كلها مشغولة بالحديث عن عودته .. الاولاد كفوا عن اللعب فى الاجران ، واصبحت لعبتهم المفضـلة أن يلتفوا حول « رفعت » أكبرهم سنا ، وعيونهم التى ينوشها الذباب معلقة بفمه الواسع ذى السنة المكسورة ليحدثهم عنه ..

« ورحمة أبوى أنا شفته ، طويل زى نخلة الشيخ جاد والشعر اللى فى صدره زى الشوك ، وعنيه بتقدح شرار .. ياخرابى ان ما كان يموت عشرة من كفر أبو حسين » !

والنسوة عند « الموردة » نسين اخبار الزواج والطلاق وأسرار البيوت التى تنقلها دائما (أم محمد) وترويها أولا بأول وهى تتقصع وتغمز بحاجبيها بين كل كلمة وأخرى .. ورحن جميعا يستمعن الى أم محمد نفسها وهى تروى أخبار عودته أنا شفته بعينى الاثنين وهو خارج من بيت الشيخ محروس ولا حاجة اتغيرت فيه زى مكان أيام الوابور . الطاقية الوبر واكله نص قورته والصـــديرى أبو زرايير صدف بتلمع من فتحة الجلبية السـكروتة ، وعينيه زى الفناجين ، وشنبه مفيش فيه شعره واحدة بيضه »

وقاطعتها امرة كانت تغمس جرتها فى مياه الترعة :

« طول عمره عايق ، لو كان ربنا هداه ، وفضل عايش زى كل

الناس ! نصيبه كده ، مين كان يصدق ان حمد بن الشـــيخ مكاوى يطلع حرامى ويمشى فى البلاد ويعمل شيخ منصر » ٠

وقالت ثالثة وهى تعدل من وضع طرحتها لتحمل الجره :

« والله يا اختى من نهار ما طلع من البلد وهى ما بقى لها هيبه ، وآخر حاجة ييجى « كفر أبو حسين » اللى أهله طول عمرهم بيشتغلوا فى أرض بلدنا بالاجرة زى بتوع الترحيلة بييجو يضربوا نار فى البلد ويموتوا منها واحد » ٠٠

وعلقت « أم محمد وعلى شفتيها ابتسامة شامتة ٠٠

« اسكتى خلى الناس اللى عاملين كبار فى البلد يتربوا ! أهو الشيخ محروس اللى اتسبب فى طرده أيام حادثة الوابور وكل الناس اللى زيه هما اللى بعتوا وراه المراسيل وسألوا عليه علشان ييجى ياخد بتار البلد ٠٠

الناس الكبار فى القرية تحولوا فجأة الى أصدقاء ونســـوا خلافاتهم المزمنة وصراعاتهم الصامتة المريرة من أجل ان يصبح كل واحد منهم المالك الوحيد لاكبر مساحة من الأرض فى القرية ٠٠

وأصبحت مندرة الشيخ محروس هى المكان المفضل للقاء هؤلاء الاصدقاء مع أحمد أبو المكاوى ، ومع أن المسألة فى الأصل مسألة الشيخ محروس وحده ، فهو الذى طرد عائلة « أبو خليل » من كفر أبو حسين التى كانت تزرع فى أرضه لانها تأخرت عاما فى تسديد التزاماتها نحو الأرض ٠٠٠ فانتقمت عائلة « أبو خليل » بقتل أحد أقارب الشيخ محروس وتردد الاشاعات انهم كانوا يريدون قتل الشيخ محروس نفسه لأن أحوالهم ساءت بعد أن طردهم من أرضه ، فليس فى كفر أبو حسين عمل لهم ، كما أن أحدا فى القريـــة لن يقبل أن يؤجـــرهم أرضه بعد ما عـــرف عنهـــم أنهم يعجزون عن تســـديد التزاماتها !

مع أن المسألة من الأصل مسألة الشيخ محروس وحده الا ان الناس الكبار فى القرية احسوا أن المسألة تعنيهم جميعا فكثيرا من أهالى كفر أبو حسين يعملون فى حقولهم ، ولو تهاونوا فى مواجهة هذه الحادثة لتمادى الكفر فى استهتاره ٠٠ ولما استطاع الناس الكبار فى القرية أن يأخذوا حقوقهم ، خاصة أن التحقيق فى القضية لم يسفر عن اثبات التهمة على أحد وان الغرامة التى فرضها مجلس الصلح على الكفر لم تدفع لأنه لا يوجد شخص واحد قادر على دفع نصيبه فى الغرامة ٠٠

***

الشباب فى القرية كان لهم موقف مختلف من عودة أحمد أبو المكاوى ، فقد كانوا مجتمعين سرا فى دكان عوضين ، ولا تكاد القدم تنقطع عن الدكان حتى يبدأ الهمس ٠٠

يبدؤه دائما شلبى وهو يضرب الأرض بعصا قصيرة غليظة لا تفارق يده ٠٠

« دى فضيحة يا رجالة ، نروح نجرى ورا واحد حرامى عشان ياخد بتار البلد ، كأن مافيش رجاله فى بلدنا ! داموتنا ولا حياتنا » ٠٠

ويرد أحد الجالسين :

« احنا بنلوم مين دلوقت ٠٠ ما هم أبهاتنا اللى جريم وجابوه ٠٠ الناس الكبار هما اللى عملوا الحكاية دى »

ويهمس شلبى من جديد بصوت حانق :

« طيب وايه العمل ؟ احنا حتى لو خدنا التار النهارده بنفسنا كل الناس حتقول أحمد أبو المكاوى اللى خده » ٠٠

وساد الصمت للحظات ثم ارتفع صـــوت كان صـــاحبه يدور بالجوزة على الحاضرين :

« أنا عندى فكره »

ـ ايـــه ؟

ـ نقتل أحمد أبو المكاوى الأول وبعدين ...

وقوطع فى صوت واحد من الجميع :

ـ لكن أحمد أبو المكاوى ذنبه ايه ؟

ـ أهو طول عمره حرامى وقتال قتله .. !

ـ لكن برضه مش أصول .. دا مهما كان ابن بلدنا .. وحتى لو قتلناه الناس حاتفتكر ان كفر أبو حسين هو اللى موته لما عرف انه جاى ياخد التار ..

وعاد الصمت يخيم على الجميع مع حلقات الدخان التى تملأ جو الدكان المغلق .. وفجأة سمعت طرقات على باب الدكان ، وحين فتح شلبى الباب أطل وجه نحيل معروق تضطرب فى عينيه نظرات غامضة ويعتم بعمامة تخفى نصف جبهته .. وصرخ الوجه ..

ـ واد يا شلبى انت هنا وانا بدور عليك من المغرب .. انت مش عارف ان القطن حيشرب الليلة دى وان دور الميـــه حيخلص بكره .. غور من قدامى .. بقية الانفار فى الغيـط من المغـــرب مستنيين تروح لهم بالعشا .. !

وهرول محروس خارجا ودخل صاحب الوجه النحيل المعروق وأغلق خلفه باب الدكان وادار فى الحاضرين عينين تلتهب نظراتهما .. وصرخ بصوت نارى أجش ..

« أنا عارف انتم هنا ليه ·· لكن قسما برب العزه لو خرجتم من ايدينا لنطردكم من البلد ، وترحوا تشتغلوا بالاجرة فى الغيطان زى أنفار الترحيلة ، انتم بتسمعوا كلام الواد شلبى المجنون ده ·· والله لو ماكنتش محتاجه فى شغل الغيط لكنت رميته فى المصيبه دى واستريحت منه ، انتم فاكرين اننا خايفين من كفر أبو حسين ؟ دول شوية جرابيع طول عمرهم بيشتغلوا فى أرضنا لكن الجربوع اللى هو دايما يرمى نفسه فى داهية ، لأنه ما فيش وراه حاجـــة خايف عليها ·· كفر أبو حسين لما يعرف اننا جبنا له واحد مجرم زى أحمد أبو المكاوى يخاف ·· دا راجل شغلته القتل يعرف ازاى يضـــرب ويزوغ ·· دا لو ضرب ونفد يبقى مصلحه ، أهو يفضل مخوفهم ، واذا ضرب ومات يبقى فى ستين داهية ! احنا ما كنـــاش بنتعب ونعرق ونلم الأرض دى علشان تيجوا تموتوا وتسيبوها فى هوجه زى دى ·· !

ـ بس يابه الشيخ محروس ·· !

ـ اخرس قطع لسانك ·· انت بترد على ياواد ·· أنا سايب ابهاتكم فى البيت عندى وكلنا متفقين ان خرجتم من ايدنا احنـــا اللى حنموتكم بنفسنا مش كفر أبو حسين ·· واد يا عوضين ·· قم اقفل الدكان وانت ياواد انت وهوة يالله روحوا لبيوتكم ·· !

وخرج الشيخ محروس ·· وخرج خلفه الجميع صاغرين ··

لم تعرف القرية فى تاريخها الطويل اياما كهذه الأيام بعد ان فعل أحمد أبو المكاوى فعلته وقتل رجلا من كفر أبو حسين ··

فالاقدام تنقطع من شوارع القرية كلها قبل الغروب بساعتين ·· أقدام الناس والطيور والبهائم ·· ولا تنطلق هذه الاقدام الا فى اليوم التالى بعد الشروق بساعتين ··

وفى هذه الساعات الطويلة لا يتردد فى شوارع القرية سوى وقع أقدام العساكر السود الذين يطلق عليهم اسم « الكتربند » وسوى أصواتهم التى لايفهم لها أهل القريةمعنىواحداولاتعنىبالنسبة لمن يسمعها من بعيد ويكون خارج بيته ـ الا أن عليه أن يختفى فى أى مكان قبل أن تمتد اليه كرابيج « الكتربند » فتمزق جسده دون أن يكون لصراخه أى معنى ودون أن يكون بمقدور أحد أن يتدخل لانقاذه ٠٠ يتساوى فى ذلك الصغير والكبير والغنى والفقير ٠٠ فجميع الناس يصبحون فى نظر هؤلاء العساكر مستحقين للضرب اذا ظهروا فى شوارع القرية فى أوقات حظر التجوال ٠٠ وهذا هو الحق الوحيد الذى لا يفهم هؤلاء الجنود لحياتهم معنى الا فى أدائه على الوجه الأكمل ومع ذلك فان هؤلاء العساكر لم يمنعوا الناس تماما من الكلام أو اللقاء ، فعندما تأتى ساعة الحظر ، وينطلق هؤلاء العساكر فى شوارع القرية تخلق القرية لنفسها شوارع أخرى تنتقل خلالها ويخلق الاطفال لانفسهم أجرانا جديدة للعب وتعرف « أم محمد » كيف تلتقى بجمهورها لتنقل أولا بأول آخر الأخبار : والمسألة سهلة جدا ٠٠ فدور القرية كلها من طابق واحد وكلها متلاصقة والحارات الضيقة التى تفصل بين دورها مما يسهل عبورها قفزا ، والشوارع الواسعة التى يستحيل عبورها تعد على الاصابع ٠٠ ولهذا فلا تكاد تقبل ساعة الحظر حتى يبدو كأن القرية قد انقلبت بقدرة قادر فالأسطح تتحول الى طرقات تدب فيها الحياة ، وتنقر فى أرضها الدجاجات ويلعب الأولاد ٠٠ والشوارع تتحول الى اسطح مقفرة تعبث الريح بما فى أرضها من بقايا القش والأوراق ٠٠

وهكذا كانت عيون الاولاد تلتقى من جديد بفم « رفعت » ذى السنة المكسورة وهو يتحدث عن أحمد أبو المكاوى !

« ورحمة أبويا ان أحمد أبو المكاوى قتل عشرة فى كفر أبو حسين وأنا بعينى دول شفت دمهم على شواشى الدره ساعة

النيابة مكانت بتحقق ، انتم فاكرين ياولاد ان العساكر دول حيمسكوه ؟؟ دول لو ماتوا ما يعرفوش سكته فين ٠٠ دا بيطلع عليهم بالليل يخوفهم وياخد منهم البنادق ٠٠ دا زمانه أخد منهم ييجى ميت بندقية ، انتم عارفين ياولاد العساكر دول بيمشوا مع بعض ليه ؟ دول خايفين من أحمد أبو المكاوى » !

***

و « أم محمد » تقسم القرية الى مناطق بعدد الشوارع الواسعة التى فيها وتقضى ليلة فى كل منطقة ، ولها فى كل منطقة أقارب ، والنسوة فى المنطقة التى تزورها أم محمد لا يأوين الى فراشهن الا قبيل منتصف الليل ٠٠

وفوق احدى كومات القش التى تملأ الاسطح تجلس « أم محمد » ٠

« وحياة ابنى محمد أنا شفت بعينى دول ناس من كفر أبو حسين شايلين عزالهم على الحمير وهاجين ، دول خلاص حيسيبوا الكفر ويطفشوا ٠٠ وبكره بلدنا تشترى الكفر ويرجع لها تانى ، دا جدى الله يرحمه كان بيقول الكفر ده طول عمره بتاع بلدنا ٠٠ بس ياكبدى لو ماكنش أحمد أبو المكاوى اتعور فى الحادثة دى ٠٠

– بيقولوا ان تعويرته جت بسيطة ٠٠ الرصاصة جت فى رجليه ٠٠

– ربنا يحميه لشبابه ٠٠ دا راجل يساوى بلد ٠٠ !

– بس الخوف من العساكر تعرف هو مستخبى فين ؟ لو كان سليم ما كانش الجن يعرف مطرحه ٠٠ !

– عساكر ايه اللى يعرفوا مطرحه ٠٠ ! دول لو طلعم من البلد يتوهوا ٠٠ ! هما مش شاطرين الا علينا ٠٠ !

ـ بذمتك يا أم محمد متعرفيش أحمد أبو المكاوى مســـتخبى فين ؟

ـ وحياة محمد ابنى ما عرف ! هو انا باسمع طراطيش كلام كده ٠٠ ناس بيقولوا انه مستخبى فى الجبانة ، وناس بيقولوا انه فى ساقية العمدة الخربانة وناس بيقولوا انه ما طلعش من البلد :

ـ مش معقول دى البلد كل ليلة والتانية فيها تفتيش ، ومين يقبل يخبيه عنده ويجيب لنفسه البلاوى !

***

منذ طرد الشيخ محروس شلبى من دكان « عوضين » ومنذ بدأ حظر التجوال وشلبى لم يعد يلتقى الا بامثاله من الشـــغيلة فى أوقات العمل بالنهار ، فقد منع الناس الكبار ابناءهم من الذهاب الى الحقل نهارا حتى تهدأ الأحوال وتستقر ٠٠

وحين يلجأ هؤلاء الشغيلة الى ظلال الاشـــجار فى الظهيرة ليستريحوا كأنهم كانوا يلتفون حول شلبى ليحدثهـــم عن أحمد أبو المكاوى فقد كانوا يعرفون جميعا أن شلبى هو الوحيد الذى يعلم أين يختفى وانه هو الوحيد الذى يحمل اليه الطعام من منزل الشـيخ محروس الذى يعمل عنده كأجير دائم ولم يسألوا ابدا عن مكانه ٠٠ كانوا يعرفون أنهم لو قطعوا لسان شلبى فلن يبوح بسر المكان ٠٠ كانوا فقط يسألونه عنه وعن مدى اصابته وعن حياته ٠٠ !

ويضرب شلبى الأرض بالعصا القصيرة التى لا تفارق يـده « يسلام يا جـــدعان ٠٠ على قد ما كنت باكره الراجـــل ده بقيت أحبه ٠٠ » ٠

الأول كان ياخد منى الأكل من غير ولا كلمة ، وبعدين ٠٠ وبعد

أيام كتير كانت رجله وجعاه قوى قاللى ، أقعد ٠٠ تعـــرف ياواد يا شلبى ايه اللى بيكدنى قوى ٠٠ ساعات أبقى تعبان وعاوز أصرخ ، أقول آه بعلو حسى ٠٠ ، لكن ما أقدرش ، يتهيألى ان حد حايسمعنى لو صرخت وساعتها ابقى عايز اعيط ٠٠ أحمد أبو المكاوى اللى عمره مخاف من حد ، ولا من حاجة يبقى عايز يعيط ساعتها لقيتنى بسأله من غير معرف : قوللى ياعم أحمد ايه اللى يخلى الواحد قلبه زى الحديد مايخافش أبدا ؟ رد عليه وبان عليه انه نســـى وجـــع رجليه ٠٠

ـ اسمع ياواد يا شلبى ربنا خلق النـاس كلهـــا قلبها زى الحديد ٠٠ العيل الصغير عمره مايخاف من حاجة أبدا ٠٠ عارف ايه اللى بيعلم الناس الخوف ؟ الفلوس ٠٠ الأرض ٠٠ الغنـــى ٠٠ الناس بتخاف دايما على اللى تملكه ٠٠

ـ طيب وانت معاك فلوس وليه ما بتخافش ؟

ـ فيه ناس بتملك الفلوس وناس الفلوس بتملكها ، والفلوس لما بتكتر فى ايد الناس بتملكهم ٠٠ أنا عمرى الفلوس مكانت بتكتر فى ايدى أبدا ٠٠

ـ الناس بتقول انك اخدت خمسين جنيه من الشيخ محروس ودول فلوس كتير قوى ٠٠ !

ـ أنا صحيح اخدت المبلغ ده من الشيخ محروس ٠٠ لكن ٠٠ أنا مكنتش عايز أقول الحكاية دى لحد ٠٠ وانت أول واحد يعرفها ٠٠ انت عارف الراجل اللى اتقتل (قريب) الشيخ محروس ؟ ايوه المعلم السيد النجار ده قريبى ، ويمكن انت ماتعرفش ان الشـــيخ محروس نفسه قريبى ٠٠ المهم ان الرجل ده مات وساب وراه أربع عيال ٠٠ فأنا اديت لامهم المبلغ ده علشان العيال تتربى منه ٠٠ وأنا جيت مخصوص علشان اخد بتار العيال دول ، جايز الكلام ده يكون

غريب عليك ، لكن أنا ميهميش ابدا انك تصدقه ٠٠ وانا ماكنتش عايز احكيه ٠٠ أحمد أبو المكـــاوى مايهموش ابدا حـــد كفايه انه هو عارف ٠٠

ـ هو مين ؟

ـ ربنا ٠٠

ـ امال ايه حكاية الوابور دى ياعم أحمد ؟

ـ دى يا ابنى حكاية طويلة بعدين ابقى احكيهالك ٠٠ بعدين ٠٠ قوم روح أنت ٠٠ دلوقتى أقوم آه يا رجلى نطقهـــا بصـــوت مكتوم ٠٠

فى دار الشيخ محروس ، وفى حجرة داخلية يضيئها مصباح نمرة ١٠ كان الناس الكبار فى القرية مجتمعين وقد خيم الصـــمت بحيث كان صوت رشفات الشاى الذى يوزعه شلبى عليهم هو الدليل الوحيد على أن ثمة مخلوقات بشرية فى هذه الحجرة ٠٠ وفى ضوء هذا المصباح بدأ وجه الشيخ محروس مطفأ الملامح تضطرب فى عينيه نظرات حائرة لا تستقر ٠٠ !

وبلا مقدمات ، ارتفع صوت الشيخ محروس بعد أن خـــرج شلبى حاملا الأكواب الفارغة :

ـ شوفوا بقى يا رجالة احنا لازم نشوف لنا حيلة فى المصيبة اللى نزلت على البلد دى ٠٠ الحال اللى احنـــا فيه ما يحتاجشـــى شرح ٠٠ لو كانت الحكاية على قد حبستنا فى البيوت زى الفراخ كانت هانت ٠٠ انما المصيبة فى الزرع ٠٠ الزرع فى الغيطان بيموت تبقى الساقية دايرة وساعة ما ييجى ميعاد الحظر الانفـــار تحـــل الساقية وترجع حتى قبل الميعاد بساعة أو أكثر ٠ الفدان كان بيعزقه

خمس أنفار فى اليوم بقى بيعزقه عشرة فى يومين ، الانفار استغلت الفرصة وبقى الواحد يطالب بعشرة صاغ فى اليوم ده غير الاهانة وبهدلة الناس واللى حصل امبارح لشيخ البلد قدام اللى يســـوى واللى ما يسواش كلكلم عارفينه ٠

امبارح رحنا قابلنا المأمور وقلنا له : ندفع التعويض اللى انتم عاوزينه بس ارفعوا الحظر ده ٠٠ شتمنا وقال لنا : « أنا عاوز تسلمونى القاتل ٠٠ لازم تجيبوا المجرم الأول قبل أى حاجة » ٠

فأيه رأيكم بقى فى المشكلة دى ٠٠ ؟

ساد الصمت مرة ثانية ٠٠ وتبادل الحاضرون نظرات مترددة ولم يفتح شخص فمه بكلمة ٠٠

ومرة ثانية ارتفع نفس الصوت :

ـ ايه المانع ندل المخبرين على مطـــرح أحمد أبو المكاوى ، يروحوا يقبضوا عليه ونرتاح من السجن اللى احنا فيه ده ٠٠

ـ بس ٠٠

ـ بس ايه يا حاج عوض حتقول مش أصول ، ده راجل مجرم ويستاهل الحرق ٠

ـ لا ٠٠ بس ياعنى افرض انه جر رجلينا فى الحكاية ، وقال اننا اتفقنا معاه وانه نفذ القتل بأمرنا ٠

وابتسم الشيخ محروس ابتسامة ساخرة ٠٠

ـ يبقى ثبت التهمة على نفسه ، وحكاية انه اتفق معانا دى مفيش حاجة تثبتها ، هو احنا كتبنا معاه عقد ٠٠ ؟

ـ افرض انه انكر خالص ، وما اعترفشى بحاجة أبدا ٠٠

ـ يا أخينا ده مضروب فى رجله برصاصة ، والطبيب الشرعى حيثبت ان تاريخ الاصابة هو نفسه تاريخ الحادثة وأكتر من كده ده راجل له كذا سابقة ٠٠ ده مجرم ٠٠ البوليس طول عمره بيدور عليه ٠٠ دول بس عاوزين يشوفوا وشه ويرموه فى السجن من غير كلام ٠ !

ويرتفع فى آخر الحجرة صوت ضعيف متردد ٠٠

ـ بس يا شيخ محروس انت عارف ان عمر الشقى بقى ٠٠ تفتكر ان أحمد أبو المكاوى بعد ما يطلع من السجن حينسى الحكاية دى ٠٠ ؟

ـ سجن ايه اللى حيطلع منه يا راجل انت ٠٠ ؟؟ سيبنا نفكر نطلع من السجن اللى احنا فيه ٠٠ وبعدين يحلها ألف حلال ، انت فاكر انك لسه حتعيش كام سنة يا حاج اسماعيل ٠٠ ؟

وحين أعلن الجميع موافقتهم على رأى الشيخ محروس ، كانت قدما شلبى تبتعدان بسرعة من وراء الباب المغلق ٠

فى صباح ذلك اليوم ، كانت القرية كلها مشـــغولة بالحديث عنه ٠

همس طفل بصوت مرتاب لآخر يجاوره :

ـ أنا شفته ٠٠ دا راجل غلبان قوى ٠٠ العسكرى كان أطول منه وكان بيضربه بالرجل وبقه نازل منه دم ٠٠ أنا كنت فاكـــره حيقطع الحديد اللى فى اديه ويضرب العسكرى لكن ما كانش قادر يعمل حاجة أبدا ٠٠

وقالت امرأة لجارتها وهى تدارى نصف وجهها بطرحتها :

ـ أنا يا أختى جسمى كله ارتعش ساعة ما شفت صدره ،

الصديرى أبو زراير صدف اتقطع ، والضرب كان باين من القطع أحمر زى الدم ..

كان رفعت لا يزال يؤكد لكل من يلقاه من الاولاد : ان أحمد أبو المكاوى هرب ، وان الرجل اللى كان العساكر وخدينه مش أحمد أبو المكاوى ..

وكانت « أم محمد » تحكى لكل من تلقاه من النساء ما حدث بين أحمد أبو المكاوى والشيخ محروس أمام المأمور .

« تعرفوا أحمد أبو المكاوى عمل ايه ؟ لما شاف الشيخ محروس واقف مع المأمور ؟ بص فى وش الشيخ محروس ومن غير مايتكلم كلمة واحدة .. تف فى وشه قدام كل الناس ..

– والشيخ محروس عمل ايه ؟

– ولا حاجة .. طلع المنديل ومسح به وشه ..

قال شاب أجير لآخر كان يقف معه :

– الناس كلها مشغولة فى حكاية أحمد أبو المكاوى ونسيت ان الواد شلبى مقبوض عليه راخر ..

– شلبى حكايته سهلة .. ايه ياعنى .. ؟ مش مسكوه بالليل فى وقت حظر التجول .. حد كان قال له يطلع فى الليلة المهببة دى .. دلوقت الشيخ محروس يروح يطلعه .. ده القطن بكره عاوز يتخف .

حادثـــة الوابـــور

فى قصة « قرية أم محمد » سأل شلبى » « أحمد أبو المكاوى » وهو يحمل اليه الطعام فى مخبئه :

ـ امال ايه حكاية الوابور دى يا عم أحمد ؟

ووقتها لم يتمكن أحمد أبو المكاوى بسبب آلامه الحادة من أن يروى « حكاية الوابور » !

وقد سأل قارىء صديق عن هذه الحكاية ، ولما كان أحمد أبو المكاوى قد سجن فى نهاية القصة ، ولن يكون بمقدوره أن يرويها ، فاننى أروى هذه القصة بدلا عنه • كما أذكر القارىء بأنه قد وردت اشارة عابرة على لسان أحمد أبو المكاوى نفسه بأن صلة قرابـــة تربطه بالشيخ « محروس » •

***

فى قرية « أم محمد » كما فى غيرها من القرى « وابور طحين»،

وكان هذا الوابور ملكا للشيخ محروس الذى كان يمتلك فى ذلك الوقت ثلاثين فدانا ، وهى كافية لأن تضعه فى الصفوف الأولى من مجتمع القرية ، ولان تجعله عضوا فى حزب الاغلبية فى ذلك الحين ، ومع أن الشيخ محروس لم يكن قد نال أى حظ من التعليم سوى ذلك القدر الذى يسمح له بأن يكتب خطابا للبنك ، ولم يكن يعرف من شئون السياسة الا عملية تجميع الاصوات للحزب أيام الانتخابات ، مع هذا فقد كان عضوا بارزا يستقبل فى بيته الضيوف الكبار من أعضاء الحزب ، ويقيم لهم الولائم ، وبالتالى فقد كان ينال المكاسب حين يحكم الحزب ويتحمل المغارم حين يقصى عن الحكم ، وكان كأى رجل ريفى شهم (وكان دائما شهما مع الحزب) يتحملها شجاعا وفخورا بما يصيبه فى نفس الوقت !!

ولم تكن حادثة الوابور سوى احدى هذه المغارم التى لم يتحملها الشيخ محروس وحده ، وانما تحملتها معه قرية « أم محمد » كلها ومع ان القرية كانت تنقسم فى صميمها الى طبقتين ، طبقة تملك الأرض ، وطبقة تزرعها ، الا أن الحدود الفاصلة بين الطبقتين كانت أحيانا تخفى على النظرة العابرة ، فمن المناظر المألوفة أن تجد الشيخ محروس المالك يتناول طعام الغداء مع أحمد أبو المكاوى الذى يزرع فى أرضه على كومة تراب فى رأس الحقل ، ولا يكاد الرجلان يفرغان من تناول الطعام ، حتى تنبش أصابعهما فى أوقات الفراغ عيون السيجة ليلعبا دورا ، ويصبح من العسير أن تلحظ فرقا واضحا بين ملابس الرجلين أو حتى طريقة كلامهما ، الا أن هناك أوقاتا خاصة ، تبرز فيها الحدود الفاصلة بين الطبقتين ، بحيث لا تخفى على أحد ، ففى صلاة الجمعة ، تحتل الطبقة الأولى الصفوف الامامية فى المسجد ، وترتدى الملابس البيضاء النظيفة ، بينما يتكدس بقية الزراع بملابس الشغل التى يأتون بها من قلب الحقول فى بقية الصفوف ، وفى مواسم الحصاد وبيع القطن حيث يتم

الحساب بين ملاك الأرض وزارعيها ، ويتم هذا الحساب عادة فى الاجران وقبل أن تخزن الحبوب ، وبعد أن يعبأ القطن فى الأكياس ولو قدر لشخص أن يشاهد فى لحظة واحدة مايحدث فى جميع الاجران من مناقشات ومشادات تصل أحيانا الى ايمان الطلاق وتتطور أحيانا الى معارك تسيل فيها الدماء ، وتنتهى مع ذلك برجل يقبل رأس الآخر ، لو قدر لشخص ذلك ، لأمكنه أن يدرك فى صورة حاسمة تخوم الطبقتين ولأمكنه أن يتأكد أن الحدود الفاصلة بينهما رقيقة كالحرير ولكنها صلبة كالفولاذ ، وأنها تسمح لكل منهما أن يتجول فى أرض الآخر ولكنه لا يكاد يوغل حتى يحس بهذه الحدود الفاصلة تجذبه وترده الى مكانه الطبيعى !

***

وكانت حادثة الوابور أيضا احدى هذه الظروف الخاصة التى تجعل الحدود الفاصلة ترق وتكاد تنعدم حتى تصبح القرية وكأنها شخص واحد عملاق تحتل الطبقة المالكة فيه مكان الرأس وتحتل الطبقة الأخرى مكان الجسد كله ..

وحين وقعت هذه الحادثة ، لم يكن حزب الأغلبية فى الحكم ، وكانت القرية وعلى رأسها الشيخ محروس ، تدرك أن دورها قد جاء لتدفع ثمن تأييدها للحزب المعارض فى ذلك الحين .

وذات يوم لم تسمع القرية صفارة الوابور فى موعدها الذى تحفظه وترتب عليه شئون حياتها ، وفى ذلك اليوم عرفت القرية أن الوابور قد أغلق بالشمع الأحمر ، لأنه لم يسدد ضرائب قديمة ، ولان طبيب الصحة قرر أنه يعمل دون أن يستكمل الشروط الصحية ، وأنه لابد أن يعاد بناؤه من جديد على أسس صحية ، وفى ذلك اليوم لم يكن للقرية حديث الا عن الوابور ، والعساكر الذين أغلقوه فى

محضر رسمى ، والضابط الجديد الذى عينته الحكومة أخيرا ليربى البلد ، وكيف كان يشخط فى العساكر ، ويضرب بكرباج فى يده من يقترب من الاهالى ناحية الوابور وهم يشمعونه !!

ولم يكن هذا كله سوى البداية ،فمع أن الشيخ محروس حنى رأسه للعاصفة ، وحاول أن يتصل بالمأمور وأن يفهمه أن موضوع الضرائب لا يزال معلقا ، فهو قد استأنف ضد الحكم الذى قضت به مصلحة الضرائب ، وأنه مستعد لاعادة بناء الوابور حسب الشروط الصحية ، الا أنه لم يجد أذنا صاغية ، وأكثر من ذلك نما اليه ـ عن طريق أحد أعوانه من موظفى المركز ممن يخفون ولاءهم لحـــزب الاغلبية وبالتالى للشيخ محروس ـ أن المأمور لن يكتفـــى بغلـق الوابور ، بل سيرسل فى ليلة قريبة قوة من الجنود تكمن بعيدا عن القرية ، ويتسلل بعض أفرادها ممن عرفوا المكان ليفتحوا الوابور ، ثم تهجم القوة الرئيسية بشكل علنى لتكتشف أن الوابور مفتـــوح فتقبض على الشيخ محروس وتوجه اليه تهمة ادارة الوابور سرا وفتح التشميع ، ومخالفة القانون !!

وفى تلك الليلة ، لم تنم قرية أم محمد ، وفى نفس الوقت لـم يبد أبدا أنها ساهرة ، فجميع الأنوار(١) أطفئت ، ولم تبق فى الاجران دجاجة واحدة ، والحظائر التى توجد خـــارج الدور أخليت من البهائم ، والاطفال منعوا من اللعب خارج البيوت ، كانت القريـة قد تحولت الى ذلك العملاق الذى تحتل الطبقة المالكة فيه مكان الرأس ولقد كانت القرية فى تاريخها الطويل تتحول أحيانا الى هذا العملاق ، حين يشتعل حريق فى أحد السطوح ، ليهدد القرية بأكملها ، أو حين يغرق الفيضان جسور النيل القريبة ويهدد الزرع،أوحينيحدثخلاف

---

(١) المصابيح ذات الشعلة .

بينها وبين احدى القرى المجاورة ، ولكنها فى هذه المرة تواجه خطرا من نوع مختلف ، انها تواجه الحكومة التى تملك البر كله ، وتتحكم فيه ، وربما لهذا السبب ، كان قلب هذا العملاق يدق أحيانا دقات خائفة فالمصير الذى ينتظره يبدو مجهولا وغامضا كهذه الليلة التى وقعت فيها حادثة الوابور ولم يظهر فى أى من ساعاتها نور القمر ، ولم تخفق شعلة مصباح !

وكما كانت هذه الليلة حاسمة فى حياة القريـــة ، فقد كانت أيضا الليلة الفاصلة فى حياة أحمد أبو المكاوى الذى لم يكن يفترق عن غيره من شباب القرية الا بأن جميع البنات مفتونات بلون بشرته التى عجزت حرارة الشمس عن أن تفقدها صفاءهـــا ورونقهـــا ، وبذراعيه المفتولتين ، وصدره العريض الكث الشـــعر ، وعيونـــه الواسعة اللامعة كالفناجين ، وكانت علاقة القرابـــة البعيدة التى تربطه بالشيخ محروس ، والتى كان الشيخ محروس يذكره بها دائما حين يريد أن ينهى أى خلاف بينهما ، والتى لم تعطه مع ذلك أى حق يزيد على حقوق غيره من المزارعين ، كانت هذه القرابة تضع على كتفيه فى هذه الليلة مسئوليات أحسها هو بمحض اختياره ، وسعد بها فى نفس الوقت !!

***

وكانت الخطة كما وضعها رأس العملاق ، أن تحتل جماعات من الشباب ، مسلحة بالعصى وبنصائح الشـــيوخ ألا يتورطوا فى ارتكاب جريمة ، أن تحتل هذه الجماعات منافذ الطرق التى تؤدى الى الوابور ، وأن يحولوا دون وصول العساكر الى الوابور لمحاولة فتحه !

وكانت المصادفة وحدها هى التى وضعت أحمد أبو المكاوى

مع اثنين من الشبان ، على رأس الجسر الذى اختاره الضابط واثنان من العساكر ليتسللوا من حقول الاذرة المجاورة له الى الوابور !

وقبل أن يصل الضابط ورفيقاه ، كان أحمد يغالب فى صمت الخوف الذى بدأ يتسلل الى قلبه كلما طال الانتظار ، يتسلل عبر الظلام ، ومن فوق رءوس الاشجار التى يحركها الهواء أحيانا ، ومن خلال الاصوات المفاجئة التى تحدثها حركة طائر أو حيوان خلال حقول الاذرة الممتدة بجوار الجسر ، وهمس لرفيقه بصوت أجش :

– ولاد أوعوا تكونوا خايفين ؟

– مش ممكن انت معاك رجالة !

– وأنتم كمان معاكم راجل !

ويشعر بالخجل لأنه يخاف مع أنها مسئوليته ، فهو قريب الشيخ محروس ، بينما لا تربط الآخرين به أدنى صلة ، وتخطف فى رأسه صور غريبة فى تلك اللحظات ، (هنومة التى قبلها أمس في حقل الاذرة ، أمه التى كانت تقول له : « يابنى ما لنا ومال الوابور ، احنا لا لنا فى الطور ولا فى الطحين ، يعنى هو الشيخ محروس بيسأل عن حد لما يكون مبسوط ؟ » ، الرهان الذى كسبه أمس حين رفع بيديه الاثنتين الحديدة الضخمة التى كان رجال المساحة يدقونها فى حدود الأرض الجديدة التى اشتراها الشيخ محروس !! ، صورة باهتة لابيه الذى مات منذ أعوام) ، وفجأة غاص قلب أحمد أبو المكاوى بين ضلوعه حين سمع بوضوح حركة تتابع فى قلب حقل الاذرة المجاور ، لم تكن أبدا حركة طائر أو حيوان ، ان عيدان الذرة فى تمايلها المطرد تفصح عن نوع الحركة ، كانت الحركة تقترب فى اتجاه الجسر الذى يختبئون فى باطنه ، داخل الحشائش العالية التى تغطى باطن الجسر ، وحين توقفت هذه الحركة للحظات خيل

اليه أن أنفاسه هى الأخرى توشك أن تتوقف وفى وضوح شديد سمع هذا الهمس :

ـ اسمعوا ·· احنا بدل ما نطلع على الجسر ، نفضل ماشيين فى قلب الذرة قصاد الجسر ، لغاية ما نقرب على الوابور ·· وبعدين لما نتأكد ان الرجل مقطوعة من الحتة ، تدخلـوا على الوابـور وأنا أراقب لكم الجسر كله ·· فاهمين ؟ ··

ـ فاهمين يافندم ·· !

ـ ياالله ·· !

ومن جديد راحت أعواد الذرة تفصح خلال حركتها عن اتجاه الضابط والجنديين ، لقد أعطوا ظهورهم لاحمد أبو المكاوى ورفيقيه ·· وأشار أحمد لرفيقيه بأن يفاجئوهم من الخلف ، لا يدرى كيف فهما هذه الاشارة ، ولا كيف فكر هو فيها ·· !

***

وما حدث بعد ذلك فان أحمد أبو المكاوى ، مع أنه رواه آلاف المرات ، فانه لا يستطيع أن يصدق هو نفسه انه قد حدث كما رواه بنفس الدقة وبنفس الترتيب ، انه يزعم أن المفاجأة شلت الضابط والجنديين ، لقد جذب كل واحد منهم كتفى شخص الى الخلف وفى لحظة كان الجميع مطروحين فى الأرض المروية منذ ليلة واحدة ، هو نفسه لم يكتشف أن الضابط كان من نصيبه الا لأن النجوم النحاسية فوق كتفيه جرحت يده من عنف الجذبة التى أسقط بها الضابط الى الأرض ، لا يدرى أين ذهب الخوف الذى كان حتى آخر لحظة يكاد يشل قدميه ؟ ما ان وجد الضابط ملقى على الارض وهو يوثقه تماما بذراعيه حتى لم يعد لهذا الخوف من أثر لم يكن ما يقبض عليه هو الحكومة التى طالما أرعبه اسمها ، كانت الحكومة فى تلك الليلة مجرد

جسد ٠٠ جسد لا يفترق فى شىء عن الاجساد الكثيرة التى تعارك معها ، ولغمطها فى الطين ، جسد وكتفان وذراعان وضلوع وعنق لواه تحت ذراعه وسمع بوضوح لهاث صاحبه ، لقد قاومه الجسد طويلا ، ولكن لم تكن هذه أول مرة يتعرض فيها لمثل هذه المقاومة ، لقد قاومته أجساد أقوى من هذا الجسد فى معارك سابقة ولكنه كان يتغلب عليها فى النهاية بقدرته على التحمل ، كان يعى فى نفسه هذه القدرة ، لا يدرى متى استمر هذا الصراع ؟ ولا كيف ؟ كان يحس أحيانا بلكمات فى وجهه وأحيانا كان يبصر النجـــوم وأحيانا كان يحس طعم الطين فى فمه ولا يبصر سوى الظلام ، وكان يسمع صوت تقصف أعواد الذرة ، ودخلت فى عينه اليسرى حشرة دقيقة من هذه الحشرات التى تطير فى الليل ، وأغمض عينيه ، لم يكن فى حاجـة لهما ٠٠ لم يكن هناك سوى الظلام ، واختصر العالم فى تلك اللحظة فى حدود الجسد الذى سيطر عليه سيطرة كاملة ، يرتفعان معـــا وينخفضان معا ويتقلبان ، ولكنهما معا كانا داخل قفص حديدى من البغض والسخط والخوف لا تسمح قضبانه لهما بأى فكاك ، من أى نوع !! لا يدرى أحمد أبو المكاوى متى بدأ يشعر بالانهيار يدب فى الجسد الذى كان يلتحم به ، ومتى بدأت حركته تضعف ، وأنفاسه تتحول الى لهاث حقيقى ؟ ولا يدرى متى بدأ هذا الشعور الغريب يتفجر فى داخله ؟ كان يحس أن هذا الجسد قد تجســـمت فيه كل الاشياء التى كان يكرهها والتى كان يخافها والتى كانت تسخطه ، وان هذه ليلته ليثأر من كل هذه الاشياء ليتخلص منها ! وحين فتح احدى عينيه خيل اليه أنه يرى فى هذا الجسد وجه الشيخ محروس ، كان ذلك للحظة عابرة ، وجرجر الجسد الذى بدا عاجزا عن بذل أية مقاومة ٠٠ اقتاده داخل القفص الحديدى الى قناة قريبة داخل حقل الاذرة لم تجف مياهها بعد وراح يغرق وجهه فى مياهها الراكدة «هذه هى الحكومة اذن » ، كان يفكر بهذه العبارة حين سمع صوت الجسد

يئن ويتوجع ويململ : « فى عرضك أنا لى أولاد » وفكر « للحكومة أولاد أيضا » ، « انها مثلنا » ، « فى عرضك أنا حموت » ، وفى هذه اللحظة فتحت عينه اليسرى كانت قد تخلصت بطريقة ما من الحشرة، وأبصر وجه الضابط الذى غسلته قليلا مياه القناة ، أبصره خلال الظلال ، لم يكن يختلف عن أى وجه آخر الا بهذا الرعب الذى عجز الظلام عن اخفائه !!

ـ انت عاوزنى أسيبك ؟

ـ أيوه ٠٠ !

ـ وما ترجعش البلد تانى ؟

ـ أيوه ٠٠ أنا كنت طالب نقلى بلد تانية ٠٠ ! بس ٠

ـ بس تمشى على طول زى ماجيت ٠٠ انت لو عملت أى حاجة انت والعساكر حتموتم كلكلم هنا ٠٠ البلد كلها مستعدة ٠٠ فاهم ٠٠ !

***

لا يعلم أحد كيف رجع العساكر فى تلك الليلة ، ولا كيف رفع الضابط رأسه فى وجه المأمور ٠٠ !

ولكن الذى يعلمه الجميع هو أن القرية لم تنم لا فى تلك الليلة ولا فى غيرها من الليالى التى مرت بعد حادثة الوابور ٠٠ ولا أحد يعرف عدد الليالى التى سهرتها القرية بسبب من نصرها الذى كان أكثر اثارة للقلق من أى هزيمة ، ولقد كانت لهذه الحادثة آثار بعيدة بالنسبة لقرية أم محمد ولكن الذى يعنينا هنا هو هذا الآثر الذى يتصل بأحمد أبو المكاوى ورفيقيه ، لقد نصحه الرجال الكبار فى القرية فى تلك الليلة بأن يختفى مع رفيقيه فى احدى القرى المجاورة عند أقاربه،

ولم ينعم أحمد أبو المكاوى بفرحة انتصاره سوى لحظـــات ، دس بعدها الشيخ محروس فى يده بضعة أوراق مالية اكتشف فيما بعد انها جنيهان ٠٠ !

وفى القرية التى اختفى فيها لم يكن له من عمل الا أن يأكـل ويشرب الجوزة ، ويروى للناس الذين يلتفون حوله فى كل ليلـــة وعيونهم تبحلق فيه كيف ضرب الحكومة ؟ وكيف جعلها تئن وتتوجع وتقول : « أنا فى عرضك !! » ، وكانت القصة تنتشر بين القـــرى المجاورة وتنمو ، وتتضخم ، وكانت تنتهى أحيانا بموت الضـابط وأحيانا أخرى بموت الجنديين ، وكانت صورة أحمد أبو المكاوى تزداد على ألسنة الرواة طولا وعرضا ، وحتى ملامحه الجميلة التى كانت لا تلائم الاسطورة ، كانت تظهر فى الروايات جهمة قاسية ، تخيف الجن نفسه ، وحين انطلقت بعض الاشاعات تؤكد أن الضابط لا يزال يواصل البحث عن أحمد أبو المكاوى لينتقم منه ، أبدت قرى كثيرة استعدادها لاخفائه مع رفيقيه ، وحين أعلن أحمد أبو المكاوى أنه لم يعد يهمه أحد ، وأنه لن يترك بلد أقاربه ، بل انه سيعود قريبا الى بلده ، حين حدث ذلك كانت القرى المجاورة تتدفق فى كل ليلة لتشاهد الرجل الذى ضرب الحكومة قبل أن يعود الى بلده !

وجاءت عودة أحمد أبو المكاوى بأسرع مما كان يتصور اذ جاءت حكومة الاغلبية الى الحكم ، وجاء دور قرية أم محمد لتتلقى نصيبها من المغانم ، وعاد أحمد أبو المكاوى كما يعود الابطـــال ، وسهرت القرية كما لم تسهر من قبل ، وكان الناس يحدقون فيه كما لو كان شخصا آخر تماما غير الذى عرفوه طوال حياتهم ٠٠

وفى الحق أن أحمد أبو المكاوى كان قد أصبح شخصا آخـر تماما وكان أول من أحس بهذه الحقيقة ، هو الشيخ محروس نفسه ،

وكان لابد أن تنتهى احتفالات القرية بعودة البطل ، وكان لابد أن يعود البطل نفسه الى غيطه والى حياته العادية ، فقد بدا واضحا منذ اختفى الخطر بعودة حكومة الأغلبية ، ان التخوم الطبيعية لقرية أم محمد توشك أن تظهر من جديد ، وأن الخيوط الناعمة كالحرير والصلبة كالفولاذ راحت تجذب كل شخص الى حدوده ، والى مكانه الطبيعى !!

وذات ليلة تحقق ما كان يحس به الشيخ محروس بطريقة غامضة فقد دخل عليه أحمد أبو المكاوى وقال له :

ـ اسمع بقى يا عم الشيخ محروس ، اذا كنت عاوزنى أرجع أزرع فى أرضك زى الأول ، لازم يبقى الحساب يكون بالنص ، بالنص فى كل حاجة ، نص التكاليف ونص الزراعة ! انما النظام اللى ماشى دلوقت ماينفعش ٠٠ آه ده الحق ودى الاصول ٠٠ وصمت الشيخ محروس طويلا قبل أن يرفع رأسه ليقول بصوت هادىء وحاسم معا :

شوف بقى يابنى ، أنا ما أقدرش أزرعك بطريقة غير اللى ماشى عليها كل الناس ، وكمان ما أقدرش أزرع كل الناس زى ما أنت عاوز ، ثم صمت قليلا وفكر ، « ان أحمد ابو المكاوى لن ينفع بعد اليوم فى شغل الغيط » ، وأراد أن ينهى الموقف بطريقته فقال :

ـ وعلى كل حال يا ابنى انت قريبى ، وبيتى مفتوح لك ، تاكل وتشرب وتقعد زى الملك ، واذا خليت بك ابقى مش راجل ، ما أبقاش الشيخ محروس !؟

وهنا ولأول مرة فى تاريخ علاقة الرجلين صرخ أحمد أبو المكاوى فى وجه الشيخ محروس :

ليه ؟ هو أنا عاجز علشان أقعد آكل فى بيتك ، اذا كنت مش عاوز تدينى حقى على الشغل ، تبقى ازاى حاتأكلنى وأنا قاعد فى بيتك من غير شغل ؟ !

– شوف يابنى بس ما تغيرش دمك ، أنا مستعد أديلك عشرة جنيه أهم (وأخرج النقود فعلا) وروح لف فى البلاد زى مـا انت عاوز ، اذا لقيت حد يرضى يزرعك كده الله يحنن عليك وعليه ، واذا ما لقتش ، بيتى وغيطى موجـودين ، بس تـــزرع زى بقية الناس مابتزرع !!

وأدرك أحمد أبو المكاوى ما وراء كلمات الشيخ محروس ، انه يريد أن يتخلص منه ! انه يدفع له ثمن مغادرته للقرية ! وفكر « انه لا يمكن أن يزرع كما يزرع بقية الناس ، فهو يعرف جيدا أنه ما من مزارع واحد يرضى بالطريقة التى يزرع بها ، ولكن ما من مزارع واحد يجرؤ على أن يعترض على تلك الطريقة ، فهناك عشرات غيره من الاجراء يتمنون شبر أرض يزرعونه بأى طريقة ، ومهما تكـــن القسمة » وفكر أن الناس جميعا يخافون فقط ، وأنه لا أحد أحسن من أحد ، وتخيل وجه الشيخ محروس مغروسا فى الطين كوجه الضابط وأنه فى لحظة كهذه ، لن يرفض له طلبا ، ولكنه لن يفعل ذلك قبل أن يجرب حظه فى البلاد الأخرى ، لقد سمع أثناء اختفائه أن هناك بلادا تزرع بطريقة المناصفة ، وأخذ الجنيهات العشر ، ووضعها فى جيبه دون كلمة وغادر قرية أم محمد بحثا عن هذه البلاد التى تعطـــى الزارع نصف ما تنتجه الأرض ولم يجد أبدا تلك البـلاد ، فقط كان يجد صـــورا مختلفة للشـيخ محروس الذى تركـه فى القرية !!

ومنذ تلك الليلة لم يرجع الى القرية الا حينما حدث الخلاف بينها وبين كفر أبو حسين ، ومنذ تلك الليلة أيضا والقرية لا تنتظر سوى أخباره،وأخبار هجماته على العزب والتفاتيش،وأخبار اتاواته التى يفرضها على كبار الملاك ، وأخبار فشـــل البوليس فى القبض عليه ، وفى البداية كانت القرية تتلقى أخباره بشىء من الفخر ، ثم بمرور السنين أصبحت تتلقاها بشىء من الخجل ، وكانت النتيجة أن الجيل الذى ينتمى اليه شلبى لم يعرف عنه سوى أنه لص وقاطـــع طريق ، وكان هذا الجيل يسمع حادثة الوابور بطريقة مختلفة بطلها الشيخ محروس ! ٠

الرحيـــل

فى تلك الليلة ، كان يفكر وهو يغالب النوم ، أنه قد آن الأوان لكى يرحل ، لكى يرى الدنيا خلف الأشـــجار البعيدة التى تلتقى عندها حافة السماء بالأرض ، ولأول مرة لم يشعر بذلك الخوف الذى كان يشل عقله وقدميه كلما فكر فى الرحيل ·· ولماذا يخاف ؟ انه فى هذه المرة لن يكون وحده ·· سيكون برفقة المعلم «جاد الرب» ضمن طابور طويل ينتقل من بلد الى بلد ، طابور يشاهد بلاد البـر كله ، ويعمل دائما ، ولا يتعطل أبدا ، وتجرى فى يده الفلوس ، وفى الليل يلتف الطابور حول المعلم « جاد الرب » ضمن حلقات عديدة من أهالى البلاد ليستمع الى المعلم ، الذى يغنى دائما ، ولا تفارق الابتسامة شفتيه ، ولا يحمل للدنيا هما ··

وبدت له حياته التى لا يعرف عدد ما فيها من السنين ، كأنما لم تكن سوى انتظار طويل لهذه الليلة ، التى اكتشف فيها خـــلال

حديثه مع المعلم « جاد الرب » أن حلمه القديم ســـوف يتحقق فى صباح يوم قريب ..

***

حين كان يقف عند نهاية الحقل الذى يرعى فيه البهائم ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، ويمد بصره الى بعيد حيث تنطبق حافة السماء على أطراف الاشجار البعيدة ، كان يشعر أن الدنيا تنتهى عند هذه الاشجار ، وفكر أحيانا ـ دون أن يجرؤ على تنفيذ فكرته ـ أن يذهب الى هذه الاشجار التى تنتهى عندها الدنيا كان مايضايقه فى ذلك الحين ، أن الاولاد فى مثل سنه يذهبون مع آبائهم الى تلك البلاد البعيدة التى توجد عندها هذه الاشجار ، أما هو فلم يكن لـــه أب يحمله الى تلك البلاد ، ولم تكن له أم تحدثه عنها ، كان يعمل عند « الحاج محمود » نفرا بالشهر ، يرعى بهائمه فى الحقل ، مقابـــل أكله وكسوته وخمسين قرشا يدخرها له الحاج كل شهر ، كان الحاج رجلا طيبا ، ولم يكن يفكر فى أنه سيأتى اليوم الذى يترك فيه دار الحاج محمود ، لولا ذلك اليوم الذى طلب فيه خمسة قروش ليذهب الى سوق الخميس فى المدينة المجاورة التى لاتظهر أبداخلف الاشجار، وان كان يسمع وهو فى الحقل صفير القطارات المارة بها ، كما يسمع أحاديث الاولاد عنها كل خميس .. يومها ضربه الحاج محمود قلمين وصرخ فيه :

ـ احنا فاضيين للكلام الفارغ ده .. ويومها فقط بدأت فكرة الرحيل تأخذ صورة أخرى فى رأسه .

فكر فى أن يرحل الى بيت رجل آخر يعمل عنده بالشهر ، هو ليس طفلا حتى يضربه الحاج محمود ، وأصحاب الاملاك فى القرية يعرضون عليه ستين قرشا فى الشهر ، فما الذى يرغمه على قبول الذل فى بيت الحاج محمود ؟

وهكذا أصبحت فكرة الرحيل عنده لا تذهـــب الى أبعد من الانتقال من بيت الى بيت ٠٠ داخل القرية ، رحيل دائم خلف أية قروش زائدة يلوح بها أحد أصحاب الاملاك ٠٠ وكبر « منصور » وترعرع عوده ، وأصبح شابا مفتولا يعلق الساقية ويمسك المحراث ٠٠ وكبرت أجرته أصبحت جنيهين فى الشهر ، واستمر منصور يكبر فى السن ولكن أجرته لم تزد قرشا واحدا على الجنيهين ولم يضايقه ذلك أبدا ، فلم يكن فى القرية كلها نفر واحد يتقاضى أكثر من جنيه ونصف فى الشهر ، ذلك أن منصور لم يكن نفرا مثل بقية الانفار ، كان « قدمه » ــ كما يردد الناس فى القرية ــ « قدما » أخضر على الأرض التى ينزل فيها ، ما من مالك عمل عنده الا واشترى أرضا بعد عام أو أكثر ، وكانت القرية كلها تنسب اليه الأرض التى يعمل فيها فيقول الناس : « مين شاف القطن بتاع منصور ٠٠ الواد منصور زرع فدانين قمح فى أرض السرو انما يا سلام ٠٠ الفدان بتاع عشر أرادب » ٠٠

على ان موهبته الحقيقية كانت تظهر فى تربية العجول التى تعتبرها القرية من أهم موارد الرزق الوفير ٠٠ وحين انتهى بـــه المطاف الى دار « الحاج حسنى » قال له الحاج بعد عامين ، جعل أرضه خلالها كالعروس :

ــ أنا مش عاوزك تروح الغيط أبدا النهاردة ٠٠ أنا عاوزك تخلى بالك من تربية العجول اللى فى المخزن ٠

كان يعرف مزاجها ، ولا يترك أمر شربها للاطفال فى الدار كما هو الحال بالنسبة لبقية البهائم ٠٠ كان يقول :

ــ « العجل الصغير زى العيل تمام يحب يتردد كتير على الميه ويلعب فيها بلسانه ، ولازم الواحد يطول باله عليه مرة واتنين وتلاتة

لغاية ما يشرب كويس ، الاولاد لو سقت العجول تموتها من العطش لأنهم بيفتكروا ان العجل شبع من أول مرة » ٠

وحين كانت تمرض ، فانه كان يعرف كيف يعالجها دون حاجه الى طبيب ، فلم يكن الناس فى القرية يحبون أن يرى أحد حتى ولو كان طبيبا ، عجول التربية ، فهم يعتقدون انها تتأثـر بعيون الناس الغرباء ، أما هو فكان يعزل العجل المريض ، ويمنع عنه الطعام أياما، ويهتدى بغريزته التى لا تخطىء الى مكامن مرضه ، فيؤلف له من الاعشاب التى تملأ حوافى الحقول طعاما يصح به ويشفى ، وكان هذا من أسراره التى لا يعرفها حتى من يعمل عندهم ٠٠ » ٠

***

وذات يوم مرض « منصور » نفسه ، ولم يكن مرضه من هذه الامراض المعروفة التى تعالجها القرية دون حاجة الى طبيب ، وكان مرضا غريبا ، فمنصور لا يشكو ألما فى مكان معين من جسده ، ومع ذلك فقد كان جسده ، كما يقول الناس فى القرية ، (نازل يهوى) ٠٠ وفى البداية كان الجميع يؤكدون (أنها عين وصابته) وتحرك بعض الناس الطيبين ليدفعوا عنه أذى العين فكتب له الشيخ « عرفة » فقيه القرية ورقة ٠٠ ولم تنفع الورقة ٠٠ وفكـــر فى الذهاب الى أقرب مستشفى من القرية ، ولأول مرة أبصر طبيبا وقال له الطبيب وهو يكتب فى أوراق أمامه ودون أن ينظر اليه :

ـ انت يلزمك عملية ، ولما يفضى سرير فى المستشفى نبقى نعملها لك ٠٠

ولم يجر العملية ، فهو الآخر لم يكن فاضيا ، فالعجـــول فى حاجة الى من يخدمها كل يوم ، وفكر يومها فى أن شغل الغيط يسمح

أحيانا ببعض الفراغ الذى يمكنه من اجراء العملية ، ولكنه لم يفكر قط فى أن يعود لشغل الغيط ، الذى أصبح لا يناسب صحته ، كان حريصا على أن يظل فى خدمة العجول ، فذلك عمل مريح ، ولو كان ثمنه ألا يجرى العملية ..

وفى يوم قال له الحاج حسنى وهو فى طريقه الى المسجد :

ـ يابنى أنا شايف صحتك فى النازل .. ما تـــروح تعمـل العملية ؟

ـ بس يا عم الحاج حسنى .. العجول زى ما أنت عارف مين حايقوم بواجبها ؟

ـ انت مالك بقى ومالها ؟ .. فكر انت فى نفسك .. ماهو المرض كمان معادش مخليك تقدر تقوم بحاجة أبدا ! ..

وفهم يومها أن الحاج حسنى يطرده بالذوق .. وذهب الى المستشـــفى فى يأس .. وقال له نفس الطبيب وهو يعقـد ما بين حاجبيه :

ـ يابنى أنت اتأخرت كتير قوى عن الوقت المناسب للعملية .

ـ وايه العمل يا دكتور ؟

ـ تاخد الدواء ده اللى حاكتبولك .. وتقعد فى بيتكم .

ـ والدواء ده يشفينى يا دكتور ؟

ـ يا ابنى ربنا هو اللى بيشفى الكل .. !

***

وحين رجع الى القرية بالدواء ووجد أن الحاج « حسـنى » قد شغل عنده نفرا اخر .. قادته قدماه الى المسجد .. فقد كان من

عادته حين يترك الدار التى يعمل بها أن يتجه الى المسجد ، وقد كان من عادة أصحاب الاملاك فى القرية ، حين يرونه لا ينصرف بعد صلاة العشاء أن يفهموا أنه أصبح بلا عمل .. فتبدأ المنافسة عليه .. كل واحد يأخذه جانبا .. وكل واحد يؤكد له أنه سيكون مبسوطا معه ، وأن جميع طلباته من « عينيه الاتنين » .

وفى تلك الليلة وبعد أن فرغ الناس من صلاة العشاء .. كان كل واحد منهم يدير رأسه جهة الركن الذى يقبع فيه منصور مرة ومرتين وفى النهاية يأخذ حذاءه من شباك المسجد وينصرف . ولم ينس شخص واحد أن يرمى عليه السلام حين يمر به .. حتى الحاج « محمود » .. أول رجل عمل عنده لم يفعل أكثر من أنه قال له بعد أن وارى باب المسجد نصف جسده :

ـ اتفضل معنا يا منصور .. كأنه ضيف أو رجل غريب عن القرية ..

ولم يعرف منصور ماذا جرى لهؤلاء الناس .. ؟ كلهم جميعا عاش فى دورهم .. وأكل وحمل على ظهره زكائب القمح الى مخازنهم التى تبنى دائما فوق السطوح وكسر بيده أعواد الدريس الجافة وخلطها بالتبن لتأكل بهائمهم وتعمل وتحلب .. ! وفكر فى أنه ربما عاد احدهم ليكلمه فى شأن عودته ليعمل عنده .. ربما لا يريدون أن يتنافسوا عليه حتى لا يغالى فى أجره ! وفكر فى أن ينقص من أجره .. لن يطلب أكثر من غيره من الاجراء .. ! انهم هم رفعوا أجره ، هل كان عليه أن يطلب هو خفض هذا الأجر ؟ وبرز فى ضوء الفانوس الشاحب الذى كان ينير جنبات المسجد شبح صبى عرف فيه ابن الحاج محمود .. ودق قلبه .. لا شك أن والده أرسله ليناديه .. ! لقد ظلم هذا الرجل .. آواه فى طفولته وها

هو يفتح له بيته بعد أن مرض ٠٠ وتقدم منه الصبى وتبين أنه يحمل فى يده شيئا ما ، ووضع الصبى أمامه دون أن ينطق بكلمة طبقا من الصاج فيه طعام شم رائحته وبجواره رغيفان ٠٠ كان جائعا فأكل ٠٠ ومع بوادر الاحساس بالشبع أحس بالطعام يثقل فى حلقه وفى معدته ٠٠ وبيده ترتجف باللقمة التى كانت تحملها الى فمه ، وفى تلك الليلة استيقظ حلمه القديم بالرحيل ٠٠ لم يكن يعرف بلدا يرحل اليه ، ومع ذلك فقد أحس بطريقة قاطعة أن عليه أن يرحل ٠٠ وأن هذه القرية لن تتسع له بعد اليوم ٠٠ لن يظل هنا فى انتظار أن يرسل اليه الناس طعاما ٠٠ انه لا يزال قادرا على العمل وهو لم يأخذ الدواء بعد ٠٠ ! وفى قدرة الله أن يشفيه بدون عملية ٠٠ ! لماذا يظن الناس أنه أصبح غير قادر على العمل ؟ لو ذهب الى أى بلد آخر لايعرف الناس فيه حكاية مرضه لما تردد أحد فى تشغيله فى أرضه ٠٠ المصيبة كلها أن الصغير والكبير فى هذه القرية يعرفون حكاية مرضه فيتحدثون عنها ٠٠ وفكر فى تلك الليلة أن يفعل شيئا لهؤلاء الناس أنه ليس عاجزا تماما كما يعتقدون ٠٠ ! انه يعرف كل شىء فى حياة هذه القرية ؟ وبالاخص فى حياة الذين يملكون فيها كل شىء ٠٠ ! يعرف أين يضع كل شخص مفتاح داره ؟

وفى أى مكان من السطح يخزن طعاما طول العام ؟

وأين تخفى كل امرأة ما تملك من حلى ونقود وكان ضمن كل ما فكر فيه أن يحرق القرية كلها قبل أن يرحل ٠٠ ! كان منظر القرية وهى تحترق يملؤه رعبا ، فيفتح عينيه للحظات يختفى خلالها الحريق ، ويبصر فى ضوء الفانوس الشاحب أعمدة المسجد وأركانه والآيات القرآنية المكتوبة على حواشى الجدران والاعمدة وتتناهى الى أذنيه من بعيد أصوات الضفادع والحشرات ٠٠ كل هذه المخلوقات تسبح الله بينما يفكر هو فى معصيته ويستغفر الله العظيم من الشيطان الرجيم ، لقد قال الشيخ عرفه ذات يوم أن الشيطان

لا يدخل المسجد الا متخفيا فى جسد عبد مذنب سيرحل فى الصباح تاركا أمر المخلوقات للخالق ٠٠ ما له هو وللناس ٠٠ وفى الصباح وقبل أن يطير عصفور من عشه ، وقبل أن يفد أول قادم للصلاة ، غادر مكانه من المسجد ٠٠ ووقف عند نهاية القرية وأجال بصره لحظات فوق الحقول التى يعرف كل شبر فيها ، بينما بدت له الاشجار البعيدة التى ينطبق الافق على أطرافها كأنها سد رهيب ليس فى قدرة مخلوق أن ينفذ منه ٠٠ الى أين هو ذاهب ؟ وبدا له هذا السؤال مفزعا ٠٠ ! سيقول له الناس فى البلاد البعيدة التى توجد خلف الاشجار من أين جئت ؟ ولماذا تركت بلدك ؟ وسينظرون اليه فى حذر ويعاملونه فى ريبة !! يجب أن يتخذ قرارا ، هل يمضى أو يرجع قبل أن يكشف ضوء الصباح كل شىء ٠٠ » لا ينبغى أن يراك شخص ما مزروعا فى هذا المكان كشجرة ٠٠ ! » ، وأحس بخوف غامض يشل عقله وقدميه وبأنه لم يعد قادرا على أن يفكر أو أن يتخذ قرارا ٠٠ وحين عادت به قدماه الى القرية كان لايدرى لم فعل ذلك وكيف ؟

***

على أن حلم الرحيل فى رأس منصور بدأ يأخذ صورة جديدة تماما منذ ذلك الصباح الذى هبط فيه على القرية ذلك الطابور من الانفار الذين يقومون بمد مواسير المياه النقية فى شوارع القرية ٠٠ ومنذ أصبح المعلم « جاد الرب » الذى يعمل ضمن أفراد هذا الطابور حديث القرية كلها وشغلها الشاغل ٠٠ !

لقد فتحت القرية عينها ذات يوم على طابور طويل يشق شوارعها الضيقة بوجوه لوحتها الشمس فازدادت جفافا وسمرة ، تتطلع الى الناس بعيون فيها وجل الغريب وتردده ، وتتكلم معهم بلهجة الصعيد التى تثير اهتمام الناس فى قرى الدلتا ، على أن تلك اللهجة كانت تميزها نبرة خاصة ٠٠ نبرة انسان يتحدث كل يوم لناس

لا يعرفهم ·· انسان يطلب دائما شيئا ما من هؤلاء الناس ·· قلة ماء ·· عود ثقاب ·· حزمة قش ··

ويرتدى الطابور دائما ملابس الشغل تلك التى يترك فيها التراب المختلط بالعرق آثارا لا تزول حتى لو غسلت كل يوم ·· ويحمل الطابور على أكتافه فى وضع مائل فئوسا تختلف عن فئوس الفلاحين فى القرية بأنها أثقل وزنا وبأن أطرافها أكثر حدة ، لأنها تضرب دائما فى أرض أكثر صلابة من الأرض المزروعة ·· !

فى البداية كانت القرية تتطلع الى أنفار الطابور بمئات العيون التى يمتزج فيها الفضول بالاحتقار ، وتكلمهم بمئات الكلمات التى يختلط فيها التساؤل بالسخرية ·· ويصنع الاطفال والشباب فى المساء دوائر عديدة ترقب فى صمت مشوب بالدهشة طريقة حياتهم، بعد أن اتخذوا أحد أجران القمح بيتا ، يأوى اليه الطابور فى نهاية كل نهار ·· بيتا تصنع جدرانه تلك الزكائب التى تحمل طعامهم ، وتنيره النجوم فى الليل ، وفى الصباح لا يبقى له من أثر ·· !

وبعد أيام قليلة لم تعد القرية تتحدث عن طابور الانفار ·· لقد تلخص هذا الطابور كله فى شخص واحد هو المعلم « جاد الرب » الذى أصبح حديث القرية كلها ، وأصبح الكلام عن الطابور كلاما عنه ، والتفرج على الطابور تفرجا عليه ·· فلا يكاد الليل يقبل ويعود الناس من الحقول حتى تلتف القرية حول المعلم « جاد الرب» فى حلقات تتسع حتى تغطى ساحة الجرن ثم تمتد حتى تغطى أسطح البيوت المجاورة ونوافذها ، وبينما تضم الحلقات شباب القرية وشيوخها تضم الحلقات البعيدة الفتيات والنسوة والاطفال والعجائز ··

ولا يكاد المعلم (جاد الرب) يتناول الطبلة لتنقر عليها أصابعه

تمهيدا لانطلاقه فى الغناء .. حتى يغطى الصمت كل هذه الحلقات التى كانت منذ لحظات تغشى بالحديث .. وبينما يسترسل المعلم فى الغناء تظل الحلقات غارقة فى الصمت لا تصدر عنها غير صيحة اعجاب أو صرخة استعادة يزدهر بعدها صوت المعلم جاد ويصفو ويرق .. وفجأة يكف المعلم عن الغناء ليروى حكاية أو يلقى نكتة .. وينتهز أقرب الناس اليه هذه الفرصة ليقدم له الجوزه أو كوبا من الشاى .. وتستمر القرية ساهرة ولا يستطيع شخص ما أن يحدد نهاية هذه السهرة !! ولا يعرف أحد كيف تنتهى ؟ ولا فى أى وقت ، وعادة ما تأتى النهاية بطريقة لا يحس بها أحد غير المعلم « جاد الرب » نفسه .. تبدأ المسألة بأب ينادى ولده ! أو أم تبحث عن طفلها ! ثم يتنادى أبناء الشوارع القريبة والبيوت المتجاورة ... و ... وهكذا يجد المعلم جاد الرب نفسه وحيدا فى نهاية كل ليلة بينما تسترد القرية دوائرها فى حرص صامت .. وتفتح عشرات الأبواب وتغلق .. وتتأكد كل أم قبل أن تسحب الغطاء على نفسها أن جميع أبنائها قد عادوا .. وأن البهائم تجتر طعامها فى الحظيرة وأن جميع النوافذ قد أحكم اغلاقهـا ، وأن دجاجاتهـا لم تنقص واحدة ... !

ويتجدد فى قلب المعلم جاد كل ليلة ذلك الاحساس الغامض بان شيئا ما يفصل بينه وبين ناس هذه الحلقات التى كانت تلتف حوله ، وأنه حتى وهو يغنى وهو يشعر أن صوته يضم اليه هذه الحلقات كما لو كانت ملكا له .. حتى وهذه الحلقـات تتشبث به بمئات الصيحات فان هذا الشىء الغامض يظل يفصل بينه وبينها .. غاية الأمر أنه يرق فى تلك اللحظات ، ولا يكاد يحس به ، ثم يبدأ هذا الشىء مع نداء أول أب ... يبدأ يتضخم ويتعاظم ... وتحوله مئات النداءات الى سد هائل تزيد من ضخامته عشرات الأبواب الموصدة والجدران القائمة فى كل نواحى القرية .. !

وذات ليلة نسيت القرية أن تسترد واحدا من أبنائها ، أبصره المعلم « جاد الرب » يتقدم منه فى خطوات مترددة بينما كان المعلم يكور جلبابه ليصنع منه وسادة يضعها تحت رأسه ·· !

ـ مساء الخير يا معلم ·· !

ـ مساء الفل ·· دستورك مين ؟

ـ محسوبك منصـــور·· من أهـــالى البلد وبيريدك وبيريد قعدتك · !

ـ الله يحفظك ·· أنتم اللى ناس طيبين ·· !

فى تلك اللحظة وفى ضوء القمر كان المعلم جاد الرب يبصر وجها تدب الغضون الى وجنتيه حول الفم ، وعينين تسفر نظراتهما عن ود خجول متردد ·· وفما ترتجف شفتاه بالكلمات قبل أن ينطق بها ·· ! وكان منصور يبصر وجها حاد الملامح أسمرها ، تنطـــق ملامحه بثقة واعتداد يتغشاهما حزن لا يكاد يبين ، بينما يختفى الرأس خلف لاسة تتدلى أطرافها حول الاذنين ومقدم الجبهة ··

ـ والله يا معلم أنا ما احب أسيب قعدتك الحلوة ·· والليلة دى قلت أبات معاك ·· !

ـ عدم المؤاخذة ·· الحتة مش قد المقام ·· وأهلك دلوقتى يمكن ينتظروك ·· !

وبعد لحظة صمت أجاب منصور ··

ـ لا يا معلم ·· أنا قلت لهم انى عاوز أسهر معاك الليلـــة دى ·· !

وفكر المعلم جاد أن هذه أول مرة يحاولَ فيها شخص ممـــن يحبونه ويعشقون الاستماع اليه أن يقضى ليلة معه ·· وأحس كأن

هذا الشخص يحدث ثقبا كبيرا فى هذا السد الغامض الذى يحول بينه وبين ناس هذه القرية وأن عواطفه التى كانت محجوزة خلف هذا السد تتدفق منه وتغرق فى طريقها هذا الشخص ٠٠ !

وفكر منصور أن هذه أول مرة يتحدث فيها الى شخص قادم من البلاد البعيدة خلف الاشجار التى تنطبق عندها السماء على الأرض ٠٠

وان هذا الشخص قد أحدث فى هذه الاشجار فى هذا السد الذى أحس يوما أنه لن يكون بمقدوره أن يخترقه قد أوجد ثقبا كبيرا يتسع له ولطابوره وأن هذا الشخص هو الذى سيأخذ بيده ليجتاز معه هذا السد الرهيب ٠٠ !

– قل لى يا معلم جاد ٠٠ انت بلدك فين ٠٠ !

– بلدى جرجا ٠٠٠ فى الصعيد ٠٠ !

– بقى لك زمان مارجعتش بلدك ٠٠ ؟

– من يوم ما طلعت من بلدى مارجعتش تانى أبدا ٠٠ من عشر سنين ٠٠ !

– ليه يا معلم ؟

– شغلتنا دى كده ٠٠ كل يوم شغل وكل يوم فى بلد ٠٠ ارجع ازاى ٠٠

– انت شفت بلاد كتير يا معلم ؟

– ياه ٠٠ انا شفت بلاد البر كلها ٠٠ ريف وبنادر ٠٠ واشتغلت مع ناس من كل مله مسلمين وخوجات ٠٠ !

– وكنت بتشتغل فى ايه يا معلم ؟

ـ ياه ٠٠ انا اشتغلت فى حاجات كتير قوى ٠٠٠ ! انا لما افتكر العمارات اللى بنيت فيها والسكك اللى صلحتها والمواسير والترع يتهيأ لى اننى اللى عمرت البر كله ٠٠ فين عشر سنين ٠٠ وكل يوم شغل ٠٠ شغل ٠٠ ! وفى كل بلد تلاقى الناس فاكره المعلم « جاد الرب » وبيحكوا عنه ٠٠

وأحس منصور أن حلمه بالرحيل يبصر طريقه خلال هذا الثقب الذى توسعه كلمات المعلم جاد الرب وتنفذ فيه٠٠٠«عشر سنين كليوم شغل ٠٠ شغل ٠٠ » وناس كتيرون لا يعرفون حكاية مرضه ٠٠ واعمال تختلف كل يوم ٠٠ والفلوس تجرى فى يده ٠٠ كل يوم يقبض من عرقه ٠٠ وفى صحبة المعلم « جاد الرب » يهون كل شىء ٠٠ ؟

ـ صحيح يا معلم ٠٠ دا حتى بلدنا كلها بتحبك ٠٠ وملهاش سيره غير سيرتك ٠٠ وبلا داعى نطق بهذه العبارة ٠٠

ـ دول بيتمنوا لو فضلت معاهم طول العمر ، وأحس المعلم جاد الرب أن هذه العبارة الاخيرة تشق فى قلبه طريقا مألوفا وأنها توقظ فى هذا القلب حلما قديما ٠٠ حلما يرجع تاريخه الى عشرة أعوام منذ غادر بلده وأبوه يقول له : « يا ابنى لما ربنا يسهلك وتعرف تلم قرشين لازم ترجع تانى علشان تعيش بين أهلك ٠٠ الراجل من غير أهله وبلده يبقى زى الحيوان » وقد مضت عشرة أعوام على كلمات ابيه ٠٠ عشرة أعوام قبض خلالها فلوسا كثيرة ، وصرف فلوسا كثيرة دون أن يلم القرشين ٠٠ عشرة أعوام أحس خلالها كم كانت كلمات أبيه صادقة ٠٠ ! ما الفرق بينه وبين أى حيوان ٠٠ ؟ يأكل ويشقى وينام ٠٠ ! وأخيرا يموت فى أى بلد دون أن يجد من يذرف عليه دمعة واحدة ! الناس كلهم يلتفون حوله حين يغنى لهم ويسليهم وحين يفاجئه المرض يظل يتلوى دون أن يفكر فيه أحد ، حتى الريس نفسه لا ينظر فى وجهه الا حين يكون قادرا على أن

يحمل الفأس ويعمل ! حقيقة ماذا يساوى الانسان اذا لم يكن له بيت وأهل يعود اليهم فى نهاية كل نهار ·· ! كانت الطريقة التى تنفض بها حلقات الناس من حوله فى كل ليلة توقظ فى قلبه للحظات هذا الحلم القديم ، ولكنه كان يشعر فى كل ليلة أن السد الهائل الذى يفصل بينه وبين ناس هذه البلاد لا يسمح له بأن يتقدم خطوة واحدة الى الامام ، وهاهو ذا رجل طيب يأتى ذات ليلة ليحدث ثقبا فى هذا السد ، وها هى ذى كلماته توسع الثقب وتنفذ فيه ·· !

ورفع المعلم جاد الرب رأسه بعد لحظة صمت ··

ـ والله ياسى منصور ·· العيشة مع الناس الطيبين ما تتعادل بمال وانتم وأهل بلدكم كلكلم ناس طيبين وكلكم خير وبركة ··

وحاول منصور ان يغير مجرى الحديث فسأل المعلم ··

ـ والله يامعلم أنا عاوزك تكلمنى شوية عن البلاد اللى شفتها وعن الناس اللى عشت معاهم ·· !

وأحس المعلم جاد الرب أن هذا الرجل هو فرصته الوحيدة ليشق طريقه داخل هذه القرية ·· وان الكلام معه هو فرصته الوحيدة أيضا ليشق طريقه داخل قلبه ·· !

وبينما كان المعلم جاد الرب يتكلم فى حماسة زائدة كان منصور ينظر اليه بعينين نصف مفتوحتين ! وفى رأسه يمتد طابور طويل يجوب هذه البلاد التى يسمع عنها كلاما غريبا كالسحر ·· طابور لا يعوقه أبدا سدود الاشجار ·· يرى الدنيا ويعمل ويقبض ويضحك ولا يحمل للحياة هما ·· ماذا يبقيه فى هذه البلدة ؟ ان أحدا لم يفكر فى أن ينظر فى وجهه منذ عرفت القرية كلها حكاية مرضه ·· مستحيل أن يبقى فى المسجد فى انتظار صدقات الناس ·· ! انه لا يملك غير ذراعيه وما دامتا معه فكل بلد يعمل فيه بلده

ـ .. بلد الانسان هو الذى يقدر ان يكسب فيه عيشه .. ! ومـــا دامت هذه البلدة اللعينة قد حكمت عليه بالموت فما الذى يبقيه فيها ؟ حسبه انه سيكون مع المعلم « جاد الرب » الذى يبقيه فيها ؟ حسبه انه سيكون مع المعلم « جاد الرب » الذى يكون منذ الليلة أخوه وأهله وكل من له فى هذه الدنيا .. !

وحين انتهى المعلم (جاد الرب) من حديثه الطويل لمـــح فى عينى منصور نظرة اعجاب كبير ورضا لا حد له ..

وقبل ان يتسلل النوم الى جفنيه فى تلك الليلة كان هو الآخر يفكر (فى أن الطريق الى قلب منصور قد أصبح ممهدا تماما وأن عليه بعد هذه الليلة أن يفاتحه فى الموضوع .. لقد أن له أن يستريح .. لقد تعب .. تعب من اللف .. وها هو ذا حلمه القديم يوشـك أن يتحقق .. ليس من الضرورى أن يتحقق حلم الانسان كاملا .. فأى بلد يجد فيه الشخص عملا يصبح بلده .. ويمكنه بعد أن يستقر هنا أن يعود يوما ليرى ما اذا كان أبواه لا يزالان على قيد الحياة .. المهم أن يستقر الشخص فى مكان .. فى بلد .. ويكون لـــه أصحاب .. ويأتى يوم لا محالة يمكنه فيه أن يتزوج .. ويصبح له بيت وأولاد .. واذا مرض أو مات يجد من يفكر فيه .. المهم أن يكون له بيت يعود اليه فى نهاية النهار .. مثل كل المخلوقـــات ! الناس لا يزوجون بناتهم لرجل كل يوم فى بلد .. ! حسبه انه سيكون مع منصور الذى سيصبح منذ الليلة أخوه وأهله وكل من له فى هذه الدنيا .. !

***

فى مساء الليلة التالية ، وبعد أن استردت القرية دوائرها فى صمت انفرد الرجلان ..

قال المعلم جاد الرب وهو يلف سيجارة فى بطء ..

– تعرف يا منصور ان محبتك نزلت فى قلبى .. حاجة كده من عند ربنا .. !

أجاب منصور وقد استبشر بهذه البداية ..

– القلوب عند بعضها يا معلم وربنا أعلم باللى فى قلبى من ناحيتك !!

– وأنا حتى مش عاوز الشغل يخاصن معاك وأفضل أشوفك .. كل ليلة !

– قد كده يامعلم .. ياسلام .. طيب ايه رأيـــك بقى اننا حانشوف بعض على طول .. ومش حنفترق ابدا الا بالموت !

ودق قلب المعلم جاد وخرج صوته مرتعشا ..

– ازاى بقى .. يعنى قصدك ...

– أيوه .. قصدى انى عاوز اشتغل معاك وأسيب البلد دى ..

ولهث قلب المعلم جاد بين ضلوعه .. ومضت لحظات قبل أن يجيب بصوت نم عن قلقه ..

– وتسيب بلدك وأهلك ؟

– أهلى ماتوا .. ! أنا كنت باشتغل عند واحد بالشهر .. !

ورغم ان المعلم (جاد الرب) كان يشعر فى تلك اللحظة انـــه عاجز عن أى تفكير ، وأن الموقف بدا أمامه مضطربا تماما .. فان خاطرا غريبا يرق فى ذهنه .. لو ان منصورا عمل مع انفار الترحيله .. فمعنى ذلك ان مكانه سيخلو فى القرية .. على الأقل عند الرجل

الذى كان منصور يشتغل عنده ٠٠ ! بيد ان الامر ظل بالنسبة له مقلقا تماما ووجد نفسه بلا شعور وبصوت متردد يقول له ٠٠٠

ـ غريبة يا أخى ٠٠ تعرف انى كنت بافكر أسيب شغلى وأقعد معاك واشتغل فى بلدكم ٠٠ !

وفكر منصور بعد ان زال أثر الصدمة ٠٠ لو اشتغل المعلم جاد فى القرية لاحتاج الطابور الى رجل جديد ٠٠

بيد أن الامر بدا له بعد هذا كله مقبضا للغاية ٠٠ ولم يجد كلمة واحدة يرد بها على المعلم جاد الرب ٠٠

وساد صمت ثقيل بين الرجلين قطعه صوت المعلم جاد الرب بنبرة بدت غريبة الوقع على أذنى منصور ٠٠٠

ـ والله يامنصور الشغل دا نصيب ٠٠ واذا كان لى عيش فى بلدكم لازم حا اشتغل فيها ـ واذا كان لك عيش فى بلاد الناس لازم حتسافر ٠٠ لازم عيشك يناديك علشان تاكله ولو رحت آخر الدنيا ٠٠

وفى لحظة بدا لهما معا كل شىء شاحبا وباردا (النصيب) ما أحس به كلاهما فى لحظة واحدة من شعور بالذنب نحو صاحبه ٠٠ !

ـ اذا كنت عاوز ضرورى تشتغل مع الانفار ٠٠ أنا أكلملك الريس ٠٠

ـ وأنا كمان أقدر أكلملك واحد فى البلد اسمه الحاج محمود ٠٠ راجل طيب ٠٠ وتبقى مبسوط معاه ٠٠ !

وحين افترق الرجلان كانت ترتسم على شفتى كل واحد منهما بسمة شاحبة يطل منها حلم غامض فى مستقبل أفضل ٠٠ !

حـــق

كانت محطـــة أتوبيس ـ القاهـــرة ـ رأس البر ٠٠ تغص بالمسافرين فقد كان اليوم هو يوم الوقفة والغد عيد الاضحى وجميع الموظفين والعمال والطلبة الغرباء عن مدينة القاهرة فى طريقهم الى قضاء أيام العيد مع ذويهم فى البلاد الكثيرة التى يمر بها أتوبيس « القاهرة ـ رأس البر » ولم يكن بالمحطة سوى استراحة صغيرة لا تتسع الا لعدد قليل جدا من مئـــات المتنظرين الذين تفرقوا فى أرض المحطة المتربة وبجوار كل منهم حقيبة أو سلال تحتوى غالبا على هدية العيد لاهله وربما أيضا على ملابسه المتســخة اذا كان طالبا ٠٠

ولا تكاد تقبل أية عربة حتى تستقبلها العيـــون أولا بنظرات فاحصة لتتعرف الخط الذى ستسير فيه ثم لا يلبث المســافرون فى نفس الخط ان يندفعوا نحوها من كل اتجاه ٠٠ وقبل أن تقف العربة تماما تكون أبوابها وربما نوافذها قد سدت تماما بعشرات الايدى

والارجل والاكتاف والرءوس والحقائب التى تتصارع صراعا مريرا من أجل أن تظفر بمكان فى رحلة تمتد عدة ساعات ..

أما بالنسبة لى فقد تركت عربة واثنتين وثلاثا من العربات التى تمر ببلدتنا ، تركتها كلها تسافر دون أن أحاول الدخـــول فى هذا الصراع المرير مؤملا أن تخف حدة الزحـــام بعد ســـاعات ولكن الساعات كانت تمر دون أن يتوقف هذا السيل البشرى الذى يصب من شوارع القاهرة فى أرض المحطة وأخيرا استبعدت من رأسى تماما فكرة أن أسافر مستمتعا بالجلوس فى مقعد وقبلت أن أخوض نهاية الصراع ليس من أجل مقعد بل من أجل مكان أقف فيه ولا مانع من أن أتخيل هذا الوقوف استمرارا للوقوف بالمحطة ..

وحين قدمت أول عربة تمر ببلدتنا انتظرت قليلا حتى خفت حدة الزحام على الابواب وأصبح من السهل أن أجد مكانا قريبا من السائق كانت حقيبتى لا تزال فى يدى فقد كانت رفوف العربة توشك أن تسقط بما تحمل من حقائب فوق رءوس الركاب .. وكانت الحقيبة كما كنت أنا نفسى اتحرك دون أن أشعر عشرات المرات فى الدقيقة الواحدة تحركنى الاكتاف والارداف والاقدام التى لم تثبت بعد أو تستقر فى مكان بعينه ..

كانت العربة من الداخل اشبه بعلبة سردين عادت اليه الحياة فجأة فحاول ان يسبح فى قطرات الزيت الموجودة بالعلبة .. حبـات العرق تنحدر من جميع الجباه ..

أيد كثيرة توشك ان تخنقنى أحيانا دون أن يكون بمقدورى أن أتبين أصحابها .. علبة السردين تضج بكلمات صاخبة وبذاءات واعتذارات وتجفف حبات العرق بمناديل متسخة .. وفجأة أحسست بلكزة قوية فى ظهرى كان من الضرورى أن التفت بنصف جسمى على

الاقل لاتبين مصدرها ولم يكن من السهل أن أتسامح فى شىء كهذا ٠٠ فقد كانت ضربة قوية ٠٠ وليست ذراعا عابرة ٠٠

ـ جرى ايه يا أخينا أنت مش تفتح ؟

ومع اننى نطقت هذه العبارة بصوت قوى فيه احتجاج وضيق فان صاحب الضربة الذى تبينته فقط فى هذه اللحظة لم يعرنى أدنى التفات ٠٠ كان ظهره جهتى ـ ولاحظت ان هذا الظهر كان ضخما جدا كأنه جزء من حائط تدلت عليه ستارة فى شكل جلباب ـ وكان يجلس فى المقعد المجاور لى ووجهه ناحية جاره الجالس معه فى نفس المقعد كان مشتبكا فى خناقة مع هذا الجار ٠ وكان الضجيج الذى يسود الغربة هو الذى منعنى فى البدء من اكتشاف هذه الخناقة المجاورة وحين تحول جزء من هذه الخناقة الى حركة أصابتنى بدون قصد بدأت أتنبه لها ٠٠ ومع أننى وأنا ملتفت نصف التفاته لم أكن مستريحا تماما فقد وجدتنى اتابع الخناقة وأنا فى هذا الوضع المتعب بل وجدتنى أحاول أن التفت كلية لاتابع التفرج بشكل أفضل ٠

ـ يا افندى قلت لك لازم تدفع الشلن ٠٠ ما هو مفيش فايده ٠٠ الكرسى اللى انت قاعد فيه ده بشلن ٠٠ فاهم ٠٠ !

كان الرجل الذى لكزتنى يده ينطق بهذه العبارة بلهجة خشنة ويداه تهزان بعنف كتفى الافندى الجالس بجواره ٠٠

وخلال كلام الرجل كنت أتبين ملامح وجهه ٠٠ كانت ملامحه متجهمة وذراعاه قويتان ينحدر من شعرهما الكثيف الاسود عرق غزير بلون التراب المختلط به ٠٠ وكانت عروق عنقه القصير منتفخة بالغضب والدم وعيناه اللتان كنت أراهما من جانب واحد تطـــل منهما نظرات حانقه ٠٠

ورد الافندى الجالس بجواره بهدوء ويداه تزيحان عن كتفي يدى الرجل الآخر :

– أولا شيل ايدك من هنا .. وثانيا مستحيل تاخد مليم واحد .. شغل الفتوات ده سيبك منه ..

وعاد الرجل يصرخ :

– يا افندى انا مش فتوة .. أنا راجل شريف .. أنا شيال ومعاى رخصة وناظر المحطة يعرفنى كويس .. وانا حجزت المطرحين دول من أول شبرا وكل شيال فى المحطة حجز له مطرحين وباعهم بنص ريال ونزل .. كل الركاب اللى قاعدين دفعوا فلوس وقعدوا مستريحين .. انت اللى طلعت لى فى البخت يا افندى هات شلن وخلصنا خلينا نرزق ..

– قلت لك ولا مليم .. شوف لك شغلة ثانية استرزق منها غير البلطجة دى .. !

وهنا انتسف لون الشيال واتسعت فجأة حدقتا عينيه وأطلت منهما نظرة ربما لو تحولت الى حركة لما كانت غير صفعة قوية على وجه الافندى الذى لاحظت فقط فى هذه المرة انه نحيف وشاحب الوجه كأنه غادر المستشفى لتوه .. غير أن يد الشيال التى ارتجفت لثوان قليلة سرعان ما اشتدت قبضتها على حديد المقعد المجاور وتحولت رعشات شفتيه الغليظتين الى كلمات تدفقت مسرعة وكادت ان تغطى على ما فى العربة من أصوات ..

– انت لابس افندى صحيح انما انت راجل قليل الأدب .. أنا مش بلطجى أبدا .. حقى ولازم اخده .. انت اللى بلطجى لانك عاوز تاكل حقى .. حقى لازم أخده بالذوق أو بالعافية .. واذا ما دفعتش الشلن حاوريك قيمتك قدام الركاب دول ..

وهنا فقط نم وجه الافندى الذى بدأ يتطلع من النافـــذة من خوف داخلى ..

وراح يردد بلهجة مضطربة وكأنه يخاطب أى شخص ..

ـ يا اخوانا مافيش هنا عسكرى .. ؟ والله حد يشوف لنا عسكرى .. فين عسكرى المحطة .. ؟ هى الحكاية بقت خلاص .. شغل عافية ..

لم يترك الشـيال الافندى مستمرا فى حديثه فقد ارتفع صوته مسبوقا بضحكة عصبية ..

ـ بتقول ايه ؟ عسكرى ؟ انت شايفنى حرامى قدامـــك .. طيب تعال نروح القسم سوا وورينى حاتعمل ايه هناك .. ورينى شطارتك .

كان الافندى لا يزال يردد بصوت جاهد ان يكون واضحا ..

ـ لو مكنتش مسافر كنت نزلت جبت لك عســـكرى ووريتك صحيح .. كنت ربيتك ..

وعاد الشيال يطلق نفس الضحكة العصبية التى أظهرت اسنانه المتفرقة الصفراء كأنها انياب حيوان غاضب ..

ـ بتقول ايه كنت ربتنى ؟ انا يا افندى بربى فى خمس عيال .. بربيهم كويس قـوى علشـان يبقوا زيك لا مش ممكن أخليهـم زيك ياكلوا حقوق الناس لازم يبقوا أحسن منك .. يبقوا أفنديـــة محترمين .. مش أفندية كده وكده .. !

كان الاتوبيس قد تحول بطريقة عجيبة الى محكمة صـــغيرة ملأى بالمحلفين وحتى هذه اللحظة كان الشيال يبدو هو الذى يوشك أن يكسب القضية فقد كان معظم المحلفين قد دفعوا اجور أماكنهم أما

الواقفون فقد كانوا مستعدين لأن يدفعوا أكثر من شلن فى سبيل أن يظفروا بمقعد فى هذه العربة المزدحمة ، فقد تدخل واحد منهم .. من المحلفين لأول مرة فى هذه القضية قائلا للافندى ..

– يا أخى ما تديله حاجة وخلاص .. كل سنة وانت طيب .. دا بكره عيد ..

وهنا رد الافندى بلهجة فيها بصيص من الاعتداد ...

– لا .. لا يمكن دا راجل قليل الأدب .. بعد ما قل ادبه عليه .. والله لا يمكن .. دا راجل عاوز يتأدب ..

وكأنما أحس الشيال بتأييد الركاب فبدأ يتكلم بصوت أكثر هدوءا وثقة ومد يده برفق لينبه الافندى الذى راح يتطلع من جديد الى النافذة كانما لينهى المسألة بهذه الطريقة ..

– يا افندى انا مؤدب قوى .. أنا راجل شريف .. أنا ركبت من أول شبرا علشان أحجز المطرحين دول وجيت حضرتك قعدت من غير احم ولا دستور .. أنا عاوز حقى ..

وكأنما اغرت لهجة الشيال التى مالت الى الهدوء الافندى فعاد يحدج الشيال بنظرة قاسية ..

– قلت لك شيل ايدك من على كتفى .. انت عاوز تتخانق علشان تنشلنى مش كده ؟

وهنا انهار الموقف فجأة .. لقد انتسف لون الشيال مرة أخرى ووقف نصف وقفة فبدا ضخما جدا وحجب الافندى تماما عن الركاب وخرج صوته عنيفا هذه المرة حتى لقد صرخ طفل كان نائما على كتف أمه وراح يهز كتفى الافندى بعنف ..

ـ الراجل ده مش عاوز يخلى يومه يفوت ·· أنا يا راجل لو كنت حرامى كنت نشلتك من زمان ورحت لحالى ·· وكنت زمانك محتار وزمان الركاب دول عمالين يلموك ثمن التذكرة علشان تروح ·· انما أنا راجل شريف ·· واقف أطالب بحقى قدام كل النـــاس ولازم آخده ·· أنا معايا فلوس ·· شايف ·· فلوس ·· » وأخرج من جيبه لفة صغيرة من أوراق نقدية قد بللها العرق حتى التصقت ببعضها »

ـ ان كنت راجل طلع من جيبك فلوس قد دول ·· ؟

فى تلك اللحظة ·· شعرت انه من الجائز أن يحدث اى شىء ·· ان تتحول المعركة الكلامية الى معركة حامية بالايدى ·· وربما كان التوتر المفاجىء الذى حدث للموقف ·· هو الذى أوحى الى بهذه الملاحظة التى لا أدرى كيف غابت عن ذهنى طوال تلك المدة لقد وجدتنى أسأل الشيال على الفور :

ـ والله الكرسى اللى انت قاعد فيه ده انت حاجزه لحد واللا يمكن تبيعه ··

ورد الشيال ولا تزال عيناه المحمرتان تحدقـــان فى وجـــه الافندى :

ـ مش محجوز لحد ··· وممكن أبيعه ·· !

ـ طيب اتفضل ·· ونقدته شلنا وجلست مكانه ووقـف هو مكانى ·· فى البداية خيل الى اننى أسديت معروفا للافندى الذى كان يجلس على قمة بركان يوشك أن ينفجر ·· والواقـع أن هذا التغير فى المكان كان بمثابة دش بارد انفتح فجأة على الموقف الملتهب ·· لقد ابعدت عنه على الأقل جثة الشيال الضخمة وربمـــا اكتفى

الشيال بالشلن ومضى لحاله وهذا ماكنت أفكر فيه ولكننى سرعان ما اكتشفت خطأ تفكيرى حين عاودت التطلع الى الافندى فاذا بى أجد فى عينيه بدلا من نظرة الامتنان التى كنت اتوقعهـــا احتجاجا صامتا على تصرفى ... ويبدو انه فسر سلوكى بطريقة مختلفـة فانا قد اظهرته بمظهر الرجل الذى لا يريد ان يدفع للشيال ما يستحقه وبمظهر الرجل المتمسك بحق لا معنى للتمسك به .. ووجدتنى بـلا شعور أحاول أن أخفف من وقع تصـــرفى هذا فخاطبت الشـــيال قائلا :

– كفايه بقى الشلن ده وشوف لك عربية تانية ربنا يرزقـك منها . بلاش تضيع وقتك هنا ..

ولكن الشيال لم يتحرك من مكانه وعاد يوجه الى الحديـث هذه المرة ..

– لا يا افندى .. انا مسبش حقى أبدا .. كل الناس اللـى قاعدين دفعوا ثمن المطرح اللى قاعدين فيه .. وكل واحد من الناس اللى واقفين مستعد يدفع أكثر من شلن علشـــان يقعد يســـتريح والواحد بيقعد على قهوة نص ساعة بيصرف الشلن .. هو الشلن ده له قيمة .. انما شلن من هنا .. وشلن من هنا وربنا يبعت رزق العيال فى العيد ...

كان الشيال يتجه الى بالحديث وان كان يقصد بطبيعة الحال أن يؤثر فى جارى وان يستزيد من تأييد الركاب (المحلفين) وانتهز الفرصة .. واكتسب صوته رقة غريبة لا تلائم مظهـــره القاسـى ولا الطريقة التى كان يتحدث بها ..

– ما هو يا افندى لازم العيال تعيد وتفرح وتلبس بكره زى أولاد كل الناس .. أمال ايه .. يمكن ربنا عامل الزحمـة دى فى

العيد علشان الناس اللى زينا يسترزقوا ؟ هو يعنى ياسيدى فيه كل يوم زحمة واللا كل يوم الركوب بفلوس ·· دا يومين فى السنة ·· فيه ايه يعنى لما الراكب يدفع شلن زيادة ·· ما كل يوم الناس بتركب بلاش والعربيات مش لاقية ركاب ·· وطول السنة الواحد منا بيقطع قلبه فى الشيل بنص فرنك مش بشلن ··

وحين وصل الشيال فى حديثه الى هذا الحد كان قد كسب القضية تماما فقد تحول التأييد الصامت والهمسات التى كانت قد بدأت تتردد بين الركاب فى أرجاء العربة كان كل ذلك قد تحول فجأة الى أصوات ترددت من أكثر من شخص فى العربة فى أكثر من مكان ··

ـ يا افندى أديله بقى حاجة خليه يمشى ··

ـ يا سيدى كل سنة وانت طيب اعتبر ان الشلن ده من مصاريف العيد ··

ـ يا أستاذ الحكاية ما تستاهلش ·· دا مهما كان راجل غلبان ودى شغلته ·· انت برضه لازم تضحى هو انت زيه ··

كانت هذه الكلمات قد ترددت كلها فى وقت واحد بصوت مسموع وكأنها تعبير جماعى عن تأييد العربة لموقف الشيال ·· وخلال هذه الكلمات الواضحة كانت هناك عبارات قصيرة وسريعة وغير واضحة تنبعث عن أكثر من شخص ···

ـ « ايه الافندى ده » « دا راجل ميت قوى » « هو مش شايف الناس الكبار والعواجيز اللى واقفه » ··

وفجأة احتقن وجه الافندى الذى كان شاحبا طول الوقت ولا أدرى من اين واتته تلك القوة فقد استدار فى لحظة خاطفة وانفجر فى جميع الركاب بصوت رهيب ··

– والله يا أخويا اللى صعبان عليه الشيال قوى يديله اللى هو عاوزه ·· أنا لا أفندى ولا أستاذ أنا زيه تمام وبتعب أكثر منه علشان أكسب الشلن ده اللى هو عاوز ياخده منى أنا برضـــه ورايا ولاد عاوزين الشلن زيه تمام ··أنا زاحمت واتبهدلت علشان أحوش مطرح لنفسى ·· الافندية والبهوات اللى كانوا خايفين على بدلهم وقمصانهم هما اللىدفعوا فلوس علشان يستريحوا انما أنا ما ادفعش حاجة أبدا كل واحد يوفر الكلمتين اللى عاوز يقولهم ·· !

وانقلب الموقف فجأة وخيم على العربة صمت ثقيل وتململ المحلفون فى مقاعدهم ·· ولا أدرى ما الذى جعلنى فى هذه اللحظة اتطلع الى وجه الشيال لألمس وقع كلمات الافندى عليه ··

كان الشيال لا يزال واقفا أمامى والعرق ينحدر من جبينـــه المعفر وعيناه جمدتا فجأة فوق وجه الافندى الذى كانت كل قطعة فى جسده تختلج بانفعال عنيف حار ··

واستمر السكون للحظات قصيرة ارتفع بعدها صوت الشيال بهذه الكلمات :

« برضه انت لامواخذة – مش جدع ·· انت لو مديت ايدك فى أى حاجة أنا ماكنتش حاكسفك انت فاكر يعنى ان الافندية هما اللى عندهم مفهومية بس لا وحياتك احنا برضه ناس بنفهم ·· بس الحق مافيش فيه حاجة ·· كل واحد لازم يحب ياخد حقه ·· »

وقال الافندى وقد هدأ صوته قليلا :

– بس ما تقلش حق وغيره ·· كنت قول انت انك عاوز أى حاجة وخلاص ·· انت اللى مديت ايدك وقليت ادبك ··

وعاد الشيال يتحدث بصوت بدا برغم ما فيه من رنة أســف وضيق أكثر هدوءا ··

ـ بس يا خسارة لو مكنتش ترجع تعيب ٠٠ يكون فى معلومك انى ما أقبلش منك حاجة الله أبدا وأنا مامدتش ايدى الا لانك جيت قعدت بالعافية ٠٠ وانا حاجز المطرح من قبل ماتحط رجلك فى العربية ولما قلت لك لازم تدفع شلن ماردتش عليه ٠٠ كان لازم ترد ياأخى حتى ولو مش عاوز تدفع لازم الواحد يعبر البنى آدم اللى قدامه أمـــال ايه ٠٠ !

وهنا سرت فى العربة همهمة خافتة وكأنما أدرك المحلفون ان دورهم قد جاء ليحكموا فى هذه القضية التى لا يوجد فيها مذنـب واحد ٠٠ !

وارتفع صوت أحد الركاب وقد اخرج من جيبه بضعة قروش ومد بها يده الى الشيال :

« طيب خلاص بقى خد دول على ماقسم وروح استرزق من عربية تانية ٠٠ »

وفى لحظة واحدة كان الشيال والافنـــدى يوجهان كلامهمـا للرجل الذى تطوع بدفع مبلغ للشيال ٠٠

قال الشيال : « ايه ده يا أستاذ ؟ انت بتدينى الفلوس دى ليه؟ أنا ماخدش حاجة منك ٠٠ لانى معملتش لك حاجة أبدا ٠٠ أنا آخد منه هو بس ٠٠ هو لو حط ايده فى أى حاجة مش حاكسفه ٠٠ لكن لازم آخذ حقى ٠٠ »

وكان الافندى يقول فى نفس الوقت :

ـ ايه ده يا أستاذ أنا ما اقبلش حد يدفعلى حاجة أبدا ٠٠ أنا راجل لى كرامتى ٠٠ هو لو ماكنش قل أدبه من الأول كنت انا برضه رضيته بأى حاجة ٠٠ وبرضه علشان خاطركم أنا حاديله ٠٠ بس لما الكمسارى ييجى وأفك منه ٠٠ »

وهنا أجاب نفس الرجل ٠٠ « طيب يا سيدى انا حديله دلوقت الفكة اللى معاى دى ٠٠ وحاخد منك لما الكمسارى ييجى ٠٠ خلاص بقى ٠٠ »

وأجاب الافندى « طيب ياسيدى مافيش مانع ادى له ٠٠ انا برضه كان فى نيتى أدى له من الأول أى حاجة انما هو قل ادبه ٠٠ الفلوس ما تهمش ٠٠ بس لازم برضه الانسان يكون ذوق ٠٠ أمال ايه المهم الذوق ٠٠ ومد الرجل يده الى الشيال بالنقود التى أخذها دون ان ينظر فيها ودسها فى جيبه وهو يقول :

« آهو دلوقت آخد معلهش ما دام هو حيدفع لك الفلوس أصل دا بقى اسمه حق والمهم ان الواحد ياخد حقه ٠٠ الفلوس ما تهمنيش انما المهم الحق ٠٠ آه ٠٠ !

وخرج الشيال من العربة ومرة أخرى تحولت المحكمة الصغيرة الى عربة حين ركب السائق وصعد الكمسارى وهو يقول « تذاكر ٠٠ تذاكر ٠٠٠ رايح فين من فضلك ؟ »

مـد البحـر

تحرك القطار فى بطء مغادرا المحطة ، وخلف زجاج احـدى نوافذ العربات كانت عينا « سامى » تحدقان فى أرض المحطة التى بدت خالية بعد تحرك القطار ٠٠ وشيئا فشيئا كانت المحطة تندفع الى الوراء حتى اختفت خلف سحابة الدخان التى يتركها القطـار دائما وراءه ٠٠ وبينما كان القطار يندفع الى قلب الحقول الخضراء ٠٠ كانت المدينة كلها تندفع الى الوراء بنفس السرعة وقد أطلقت دورها الكثيفة على المحطة وحلقت فوقها سحابات الدخان فبدت على البعد كأنها تعانى من حريق لم يطفأ بعد ٠٠ وشيئا فشيئا كانت بيوت المدينة تتداخل وشوارعها تختفى وألوانها تتحول الى لون الضباب فى ذلك الصباح ثم لم تعد عينا سامى تبصران غير حقول البرسيم والقمح الممتدة على جانبى الشريط الحديدى ٠٠ بيد أنه كان يحدث أحيانا أن تقفز فى قلب الحقول الخضراء صورة شاحبة للمحطـة التى غادرها ، وفى الصورة الشاحبة كانت تبرز فى وضوح شديد فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها ترتدى ثياب المدرسة وتحـاول جاهدة أن تلحق بالقطار المتحرك دون جدوى ٠٠٠ وفى اللحظـات

التى كانت تبرز فيها المحطة كان وجه سامى يزداد التصاقا بالزجاج المغلق بينما تسبح عيناه خلف طبقة رقيقة من الدموع ٠٠ وحتى حين تختفى المحطة فان عينيه كانتا لا تتحولان لحظة عن مكانهما خلف النافذة ٠٠ أكان يتحاشى أن يدير رأسه داخل العربة حتى لاتلتقى عيناه بعينى واحد من التلاميذ الكبار الذين يمتلىء بهم قطار الصباح المسافر الى عاصمة الاقليم ٠ انه يعرفهم جميعا ، ويعرف بالأخص ذلك الشاب الطويل ذا الشارب الكثيف ٠٠ ويذكر فى وضوح تلك النظرة الساخرة التى حدجه بها حين وجده يجلس هذا اليوم وحده ، ودون أن تجلس « عايدة » بجواره كما يحدث كل يوم ٠٠ ! ويخيل اليه انه لو أدار رأسه مرة أخرى ، لو التقت عيناه بعينى ذلك التلميذ ، لتلمس أى سبب واه ليتشاجر معه ، فهو لا يكف عن المشاجرة مع أى شخص ٠٠ كل يوم له خناقة ان لم تكن مع التلاميذ فمع الكمسارى أو مع الركاب ، ثم يتصور أنه من الجائز جدا أن يتقدم ، ويمسك بكتفيه ، ويهزه بعنف قائلا :

« يمكننى أن ارمى بك من النافذة ٠٠ أيها الطفل »

ويضيق سامى لأنه لن يكون بمقدوره أبدا ان يدافع عن نفسه أمام هذا التلميذ السخيف ٠٠٠ !

ويشتد احساسه بأنه طفل حقا ، ويتمنى لو كان فى قدرة الانسان أن يكبر فجأة ٠٠ ! وفى هذه اللحظة تعود الفتاة التى كانت تحاول عبثا أن تلحق بالقطار ، كانت تبدو خلف زجاج النافذة معلقة فى الفضاء ، واللون الاخضر يملأ حولها المكان ، وتتشبث يداه بحافة النافذة ، ويزداد وجهه التصاقا بزجاجها لماذا تأخرت اليوم ؟ كان التلميذ السخيف لا يجرؤ على التطلع اليه وهى بجواره !! انها لم تتأخر يوما واحدا عن المدرسة ٠٠ فى آخر لحظة حين تحرك القطار ،

كان يخيل اليه أنه سيبصرها وهى تعدو على الرصيف محاولة أن تلحق بالقطار ، ولكن حتى هذه الامنية لم تتحقق · لو أنها تحققت ، لتأكد أن الأمر مجرد تأخير عن الموعد ، أما الآن فهو لا يدرى لماذا تأخرت ؟ أليس من الجائز أن التلميذ السخيف يعرف سبب تأخرها ؟ ولكن مستحيل أن يعرف هذا التلميذ أى شىء عن عايدة فهى لا تحبه ، ولا يمكن أن تحبه أبدا !! ويوم تعرفت عايدة عليه هو كان ذلك بسبب مطاردة هذا الشاب لها ·· يومها كانت تبحث عن مكان خال فى العربة ، وذلك الشاب يسير خلفها ·· فى انتظار أن تجلس ليجلس قريبا منها ، ومع أن العربة كانت مليئة بالأمكنة الخالية ، فقد اختارت عايدة المكان الوحيد الخالى بجواره وجلست فيه ·· !

انه لا ينسى أبدا هذه اللحظة ·· لقد ابتسمت له فى رقة ، وحين حاول أن يفسح لها المكان قالت له :

ـ خليك مستريح ·· المكان واسع ··

ثم سألته بصوت خفيض :

ـ انت فى مدرسة ايه ؟

وفى تعثر أجاب سامى :

ـ أنا ؟ ·· أنا فى مدرسة النجاح الاعدادية ··

وراحت يومها تسأله عن كل شىء فى المدرسة ·· عن العلوم والمدرسين الذين يحبهم وعن الرياضة التى يمارسها ···

انه لا ينسى أبدا هذا اليوم ·· لا ينسى أن وصول القطار الى عاصمة الاقليم كان مفاجأة له ·· فقد كان من عادته أن يعد المحطات ويلاحظ الأشجار العالية التى تحيط بالخط الحديدى من الجانبين ، ويتفرج على السوق التى تقام فى مشارف المدينة ولكنه فى هذا اليوم

فوجىء بالقطار يدخل المحطة ، وبالركاب يزدحمون أمـــام أبواب العربات ، وحين افترق هو وعايدة كل فى طريقه الى مدرسته كان يشعر كأنه أفاق لتوه من حلم عجيب باهر ... كانت تلك أول مرة يتحدث فيها مع فتاة مثل عايدة .. كانت جميلة .. وحين حاول أن يستعيد صورتها فى رأسه ، لم يبصر سوى عينين جميلتين تطلان فى الفراغ .. عيناها وحدهما اللتان بقيتا فى رأسه ، وأحيانا كان يسمع صوتها يردد كلماتها معه فى القطار..وفى لحظة عابرة تذكر تسريحة شعرها والحلق المدلى على هيئة هلال صغير يهتز بريقه خلال خصلات الشعر الفاحم .. وأحيانا كانت تختفى كلها ولا يبقى فى رأسه سوى ضباب ذلك الحلم الباهر .. فيتحايل على تذكر الموقف كله مبتدئا بالتلميذ السخيف .. وهى تسير أمامه مضطربة الخطوات تنـــم ملامحها عن ضيقها بمحاولته ثم بلحظـــة جلوســـها بجواره .. واندماجها معه فى الحديث كأنهما قريبان وكأنها تعرفه منذ زمـــن بعيد .. واذ ذاك فقط كان يبرق فى رأسه جـــزء من هذا المخلوق الجميل .. بسمتها ، حاجباها وهما يرتفعان تعبيرا عن اعجابهـــا بكلامه .. مع أنه لا يذكر جيدا كلمة واحدة مما قاله لها ... أرنبة أنفها الدقيق وهى تمسحها دائما بمنديلها الأزرق .. !

وفى صباح اليوم التالى كان أول ما أبصره فى عايدة تسريحة شعرها ، كان شعرها الفاحم يغطى رأسها كأنه طاقية من الحـــرير الأسود وفوق الجبهة كانت الطاقية تنحسر الى الوراء مخلفة خصلات قليلة على جانبى الوجه تلتقى نهاياتها بنهاية حاجبيها المستديرين ، وحين سلمت عليه كانت عيناها تعكسان طيف ابتسامة لم تظهر على شفتيها ، وركبا معا ، وجلسا متجاورين وفى هذا اليوم لم يحاول الشاب السخيف أن يقترب منها أو حتى يطاردها بنظراته وفى هذه المرة حاول هو أن يسأل ... لم يكتف بدوره كمجيب عن أسئلتها .. عرف أن اسمها عايدة ، وأنها تلميذة فى نهاية المرحلة الثانوية ،

وحين حاول أن يناديها باسمها وجد نفسه يقول « يا أبلـه عايدة » وأصبحت كلمة أبله تسبق دائما أى حديث بينهما ..

« يا أبله عايدة فيه مسألة رياضية مش عارف أحلها » .

« يا أبله عايدة أنا ذاكرت امبارح ثلاث ساعات » .

« يا أبله عايدة أنا طلعت الأول فى امتحان الفترة » .

« يا أبله عايدة مدرستنا حاتعمل حفلة وحامثل فيها وعايزك تيجى تحضرى الحفلة ... »

لم تكن علاقته بها تنتهى أبدا حين يغادران القطار بل لعلها كانت تبدأ دائما عند تلك النهاية وتستمر على نحو أكثر حرية .. كان يحلم بأنهما خرجا معا فى رحلة مدرسية .. خرجا وحدهما ... ومع أنه كان يدرك أن ذلك مستحيل ، فانه كان يفضل أن تكون تلك الرحلة الى مدينة القاهرة ، فهناك لا يعرفهما أحد أبدا ، وهنـاك يمكنهما أن يذهبا معا ليشاهدا الهرم ويصعدا الى قمته ، لقد شاهد هذه القمة فى احدى رحلاته المدرسية وشاهد سـائحا أجنبيا مع زوجته ، يصعدان معا الى قمة الهرم وظل مفتونا أياما طويلة بمـا شاهده ، وحين كان يتصور عايدة وهى تصعد معه الى قمة الهرم ، كان يتصورها تلبس بنطلونا مثل السائحة الاجنبية حتى يسـهل عليها الصعود .. وأثناء صعودهما معا توشك قدم عايدة ان تزل من فوق أحد الاحجار الضخمة ، ولكنه يمسك بيدهـا فى الوقـت المناسب ويحميها من السقوط ، ويستمران فى صعودهما ، ويدها فى هذه المرة لا تفارق يده ، وحين يصلان الى القمة فان ما يحدث بينهما فى مثل ذلك المكان النائى كان ما يعذب فكره حقا .. ! على أنه كان يفضل دائما أن يجلسا متجاورين ، يدها تطوق كتفه ورأسه غارق فى صدرها وأحيانا كان يلمح من مكانه ذاك البعيد شبح التلميذ السخيف

- لا يدرى كيف يأتى الى هناك - عند سفح الهرم ينظر فى غيظ مرير صامت !

***

- تذاكر .. تذاكر ..

ويبعد سامى وجهه عن زجاج النافذة ، ويبحث فى جيوبه كلها عن التذكرة ويمد بها يده ..

كانت عايدة أحيانا تمد يدها بالتذكرتين .. !! تـــرى لمــاذا تأخرت أيمكن أن تكــون مريضـــة ... ؟ كانت أمس فى أحســـن حالاتها ... !

لقد سألته ذات مرة ..

- لما تكبر عاوز تشتغل ايه ؟

وبلا تفكير أجاب :

- عاوز أشتغل دكتور ...

- ليـــه ..

لحظتها لم يجب فقط .. تصور أن عايدة مريضة وأنها جاءت الى عيادته ليكشف عليها ، وحين فكر أن الأمر يستدعى أن تكشف عايدة عن أجزاء من جسمها كما تفعل أى مريضـــة مع أى طبيب ، ضايقه جدا هذا الخاطر ونحاه عن رأسه ...

- لا يا أبله مش حا اشتغل دكتور ... !

مستحيل أن تكون عايدة مريضة .. ! ماذا يكون سبب تأخرها اذن ؟ ان فكرة المرض أسهل بكثير ، فمعناها أن تحضر عايدة بعد يوم أو يومين ، وتصور أن عايدة قد لاتحضر أبدا بعد اليوم وأرعبته هذه الفكرة فعاد وجهه يلتصق بزجاج النافذة وخلال الزجاج الذى

كانت قطرات الندى تصنع فوقه خطوطا متعرجة كان يبصر وجـــه عايدة كأنه يطل عليه هو الآخر من نافذة قطار يسير بجواره بنفس السرعة ، وفى نفس الاتجاه ، بيد أنه كان يحس أحيانا كأن القطرات التى تبلل زجاج النافذة انما تنسكب من عينى عايدة الجميلتين ! ..

***

حين أبصرها فى صباح اليوم التالى ، وهى تقبل من بعيد على رصيف المحطة كادت أن تتحول فرحته برؤيتها الى صيحة عالية ودق قلبه بعنف ، بيد أنه تمالك نفسه تماما ، وحين اقتربت منه سألهـا بصوت جاهد لكى يخرج هادئا :

ـ اتأخرت امبارح ليه يا أبله ؟

ـ مافيش حاجة .. كنت عاوزه أذاكر شوية فى البيت ! ..

ـ لكن ازاى يا ابله تتأخرى عن المدرسة .. ؟

ـ خلاص ياسامى الدراسة عندنا قربت تخلص .. واحنـا بنستعد دلوقتى علشان امتحان الشهادة ..

ـ لكن الدراسة عندنا لسه منتظمة يا ابله !

ـ وعندنا كمان الدراسة منتظمة فى سنة أولى وتانية ..

وشعر فى تلك اللحظة كأنها تكبره بسنوات كثيرة .. !

ـ يعنى يا ابله حتسافرى زى كل يوم ؟ ..

ـ حاسافر كمان يومين بالكتير .. وبعدين أقعد أذاكـر فى البيت .

كان قدوم القطار فى تلك اللحظة .. ويد عايدة وهى تدفعه الى باب العربة برفق .. وأصوات الركاب وحركاتهم .. والبحـث

عن مكان خال .. ثم الجلوس بجوار احدى النوافذ .. كان كل ذلك فرصة نادرة استطاع سامى أن يخفى خلالها اضطرابه العميق الذى كان يخشى أن تراه عايدة ، كما كان يود فى نفس الوقت ، وبطريقة غامضة ، أن تحس به ، كان يعرف أن امتحانها سيكون بعد امتحانه بأسابيع ولن يكون بمقدوره أن يراها أبدا بعد هذين اليومين ..

وبدت له صورة أمس الكئيب .. وتصور هذا اليوم يطول ويطول ويصبح كل الايام .. لم يكن يفكر أنه سيأتى يوم لا يرى فيه عايدة . !

كان يتصور حياته كلها تمضى فى عربة قطار يحمله وعايدة طول العمر .. ! ولا يتوقف أبدا عن المسير !

– لكن يا أبله بعد ماتاخدى الشهادة .. حتروحى فين يا أبله ؟

– أروح الجامعة يا سامى .. فى مصر .. !

الجامعة .. مصر .. ويشعر أن رأسه يدور بعنف ، ويحس أن القطار يخرج من فوق القضبان ويسير فوق أرض صخرية ترجه بعنف .. !

« لا يا أبله .. لا يمكن أن تتركينى أبدا .. أنا أحبك يا أبله .. أحبك » !!

كان هذا الصوت يخرق أذنيه ، وتعجب من أن عايدة لم تسمعه، ضجيج القطار وهو يسير فوق الأرض الصخرية يمنعها من أن تسمع الصوت ، انها تنظر اليه فى هدوء غريب .. ضجيج القطار يغطى على كل شىء لو أن القطار توقف لحظة واحدة لسمعت عايدة ذلك الصوت ، ولكن القطار لم يتوقف أبدا ، وكذلك لم يخفت لحظة واحدة

ذلك النداء ·· لا تزال عايدة تنظر فى هدوء غريب ·· القطار سوف يتحطم ·· لماذا لا يغادرانه ؟ الركاب يجلسون فى هـــدوء دون أن يحسوا لحظة بهذا الخطر الداهم ·· « عايدة قومى يا حبيبتى قبل أن يتحطم القطار » ، لا أحد يستجيب له ·· وفجأة يتوقف الضـــجيج الهائل ، ويتوقف معه الصوت الذى كان يصم أذنيه ويتحول الطريق الصخرى الى قضبان ناعمة ينزلق فوقها القطار فى هـــدوء قبل أن يتوقف تماما فى محطة العاصمة ثم يغادرانه كل الى مدرسته ··

فى تلك الليلة لم يعرف سامى متى تسرب النوم الى عينيـــه ، ولم يعرف أيضا متى أبصر عايدة ، أكان ذلك قبل أن ينام أم بعد أن راح فى النوم ؟ كانت ترتدى ملابس السائحة الاجنبية ·· كانا معا فى تلك الرحلة التى يصعدان فيها الى قمة الهرم ، وبدلا من أن تنزلق قدم عايدة من فوق الصخور كما يحدث فى كل مرة ، زلت قدمه هو ·· ولم تستطع عايدة أن تمد يدها لتحميه من السقوط ، كما كان هو يفعل ·· لقد وجد نفسه ملقى فوق الأرض ·· تختلط دماؤه النازفة بالتراب ، لا يدرى متى ولا كيف هبطت عايدة من فوق الهرم لتحمله على صدرها ·· ! لم يكن وجهها هادئا كما كان فى القطار ·· كانت ملامحه تنتفض باللهفة والحنين والخوف ، وكان هو سعيدا بذلـك الحنان الذى يسيل مع دمائه ويختلط بها ، لم يشعر بآلام لهذه السقطة المميتة ، فقط كان يتصور أنه سيموت بعد قليل ، ومنحته هذه الفكرة شجاعة فائقة ، فأدار عينيه حتى التقتا بعينى عايدة ، وقال لها بصوت مرتعش :

« أحبك يا ابله ·· أحبك » ·· !

***

فى صباح اليوم التالى كان ســـامى يجلس بجوار عايدة ، والقطار ينساب بهما فوق القضبان الناعمة وعيناه تحتضـــنان فى أعماقهما صورة عايدة وهى تبتسم ، وهى تتكلم ، وهى تلتفت ·· !

– انت بتسهر كتير علشان المذاكرة يا سامى ؟

– مش كتير قوى ..

– لا دا السهر باين عليك .. !

– ليلة امبارح بس يا أبله سهرت شوية .. !

– وذاكرت ايه امبارح ؟ . وصمت قليلا قبل أن يجيب :

– ليلة امبارح كنت بذاكر وبعدين زهقت من المذاكرة ، فقعدت اقرأ فى قصة كانت عندى .. ثم أضاف بنبرة مرتعشة ، قصة كانت جميلة قوى يا أبله .. !

– ومين مؤلف القصة دى يا سامى ؟

– مش فاكر يا أبله انما فاكر موضوعها يا أبله !

– ايه موضوعها ؟

والتمعت عينا سامى .. قبل أن يتابع :

– « القصة دى عن واحد سائح من أوربا كان يحب مصر وآثار مصر ، وفى يوم يا أبله شاف بنت مصرية فاحبها قوى ، البنت دى كانت جميلة جدا ، وكان السائح يقول عنها انها تشبه نفرتيتى ملكة مصر وراح السائح لاهلها علشان عاوز يجوزها ، لكن أهلها ما وافقوش لانهم مش عاوزين بنتهم تسافر بعيد عنهم ، كانوا بيحبوا بنتهم ، ومش عاوزينها تروح بعيد عنهم ! .. السائح زعل قوى

يا أبله ، لأنه كان بيحب البنت المصرية جدا ، وشعر ان الحياة من غيرها ملهاش طعم وان الموت أحسن من الحياة » ٠

كانت عايدة تنصت الى سامى وفى عينيها تنبعث نظرة جديدة اليه وكأنها تبصره لأول مرة ٠٠ !

ـ وبعدين ٠٠ ؟

ـ فى الليلة دى يا أبله السائح ماشـــافش النوم أبدا ، كان بيفكر ازاى يقدر يعيش من غير البنت دى ، والآخر يا أبله فكر انه ينتحر فراح وطلع فوق الهرم ، اللى كان بيحبه ، ورمى نفســه من فوقه ومات ! ولما عرفت البنت المصرية انه رمى نفسه علشانها راحت له بسرعة وكانت لسه فيه الروح ، فسندته على صدرها وهى كمان كانت بتحبه يا أبله وحبته أكتر لما عرفت انه موت نفسه علشــانها ومات يا أبله ٠٠ مات على صدرها » ٠

حين انتهى من رواية قصته ، كانت عيناه تختنقان بـــدموع حقيقية وكان يبصر من خلال هذه الدموع وجه عايدة وقد تقاربت ملامحه واختطلت وذابت فى هذه الدموع ٠٠ ! ٠٠

لايدرى متى عاد الى وجه عايدة صفاؤه وتناسقه ٠٠ عاد كما تعود أن يراه ٠٠ شىء واحد هو الذى تغير فى هذا الوجه ٠٠ ربما زايل ملامحه ذلك الهدوء الغريب الذى كان يضيق به ٠٠ وومض فى العينين بريق حنون تمنى لو كان بمقدور أية قوة فى العالم أن تحفظه له وأن تحفظ لعينى عايدة تلك النظرة التى تنسحب عليه كرداء حــريرى شفاف ٠٠ وأن تبقى يدها التى سقطت على كتفيه الى ما لانهاية !!

كان القطار يهدىء من سرعته شيئا فشـــيئا وهو يقترب من المحطة وغادر سامى وعايدة مقعديهما وسارا على الرصيف صامتين وحين تركا المحطة مد اليها يده مسلما ، كانت صامتة لا تزال وكان يشعر انه قد كبر فجأة عددا من السنين وأن عبئا ثقيلا أزيـــح عن كتفيه ..

– مع السلامة يا ابله ..

ومـــدت عايدة اليه يدا فى حين كانت يدهـــا الأخرى تعبث بشعره فى ود ، كانت هى الأخرى تشعر أن عمرها قد قفز فى الزمن أعواما عديدة ، وأنها أصبحت أما لغلام رائع ووقفت ترمق فى حب طفلها الأول وهو يختفى عن عينيها بعيدا فى زحام الطريق ..

نـائب الـرئيس

أخرج هاشم علبة سجائره ، وفتحها بعناية ثم قدمها لزميلـه فتحى الذى يجلس فى المكتب المجاور ليأخذ منها سيجارة كالعادة ، ولكن فتحى ألقى على العلبة نظرة مترددة ، ثم قال بلهجة قاطعة :

ـ متشكر قوى ·· خلاص أنا بطلت السجاير ··

وارتسمت على شفتى هاشم ابتسامة تنم عن دهشته ، فقد كان فتحى من كبار المدخنين فى المكتب ، وقال ولا تزال يده ممـــدودة بالعلبة :

ـ ومتى اتخذت هذا القرار الخطير ؟

ـ أمس ·· أمس فقط ··

ـ ولماذا يا فتحى ؟ كان غيرك أشطر ؟

ـ لقد فكرت طويلا فى هذا الموضوع ·· وهذا القرار مبنى

على فكرة ، فكرة خرجت بها من تجربة سنوات مع التدخين ، وانتهيت ليلة أمس فقط الى ضرورة الاقلاع عنه .

– وما هذه الفكرة يا فتحى بك ؟

فاعتدل فتحى ، وترك الاوراق التى أمامه ، وفى نفس اللحظة كان الحديث قد اجتذب بقية الزملاء فى الحجرة ، فارتفعت بقية الرءوس عن الاوراق التى أمامها ، وكانت تلك عادة الجميع حين يبدأ فتحى حديثا من أى نوع ، وأدرك فتحى أن جميع العيون فى الحجرة بدأت تلتقى عنده ، فارتفع صوته قليلا وهو يقول :

– كلنا ندخن وكلنا نعرف ..

وقاطعه هاشم قائلا :

– انتظر حتى أشعل سيجارتى لكى أحسن الاستماع الى فكرتك .

وفى اللحظة نفسها أشعل الآخرون سجائرهم . !

« كلنا نعرف كيف تبدأ علاقة الانسان بالسيجارة ، ان السيجارة تبدأ علاقتها بالمرء كصديق عزيز لا نلتقى به الا قليلا ، أنا شخصيا كنت لا أدخن الا حين أنفرد بكتاب ، أو حين أكون مع صديق فى جلسة خاصة ، وحين يكون لدى عمل مهم يحتاج الى أن أعصر ذهنى فيه ، وبمرور الزمن تتسلل السيجارة الى كل لحظة فى حياة المرء ، لحظات السعادة لا طعم لها بلا تدخين ، لحظات الالم لا قدرة على احتمالها بلا تدخين ، حين نعمل لا تتبدد متاعب العمل الا مع حلقات الدخان ، وحين لا نجد ما نعمله يصبح التدخين هو عملنا ، حين ننتظر الاتوبيس لايستطيع شخص أن يمنع يده من أن تمتد الى علبة سجائره ، وبعد أن نركب نفعل الشىء نفسه ، حتى القهوة والشاى ، كل شىء فى حياة المرء يصبح له طعم التبغ ورائحته ، وفى كل كلمة يصبح الدخان هو الشىء الوحيد الذى يعقد صلحا

منفردا مع كل الاضداد فى حياة الانسان ، وحين يصل الامر الى هذا الحد يتولد لدى المرء شعور غريب ، أراهن انكم جميعا تحسون به ٠٠ ان السيجارة لا تصبح هذا الصديق ، بل تخيلوا لو أن صديقا مهما يكن حبنا له يشاركنا حياتنا على هذا النحو ، ونشعر بحاجتنا اليه ، وارتباطنا به بهذه الطريقة ، من المؤكد انه ستتولد فى نفوسنا كراهية عميقة لهذا الصديق تعادل حبنا له ، اننا نشعر يوما بعد يوم أن الصداقة تتحول الى زواج ، زواج كاثوليكى ، وهكذا تدخل علاقتنا بالسجائر فيما أسميه بالمرحلة الحرجة ، فنحن منذ البدء ندخن لكى نزيل ما نحس به من توتر ، ولكن التدخين يصبح بدوره مثيرا لتوتر من نوع جديد ، هذا التوتر الذى يشعر به كل انسان بفقد حريته بالنسبة لشخص أو شىء مهما تكن المتعة التى يظفر بها من هذا الشخص أو هذا الشىء ، ومن هنا تصبح المسألة خيارا بين أمرين ، ان يستمر المرء فى التدخين ويستمر فى الوقت نفسه فى معاناة هذا التوتر الخفى الذى نشعر به جميعا دون أن نجرؤ كثيرا على الاعتراف به ، أو يمتنع عن التدخين ليواجه توترا مهما بلغت حدته ، فلابد أن تكون له نهاية بعد أيام أو أسابيع ، هذه هى الفكرة الأساسية فى الموضوع ، وطبعا لن أتعرض لمسألة النقود ، فكلكم تحفظون تلك المعادلة التى تقول ان شخصا يدخن باعتدال يستهلك كل شهر ما بين ٤ و ٥ جنيهات ، أى ما بين ٥٠ و ٦٠ جنيها فى العام ، أى ما يكفى لشراء ثلاث بدل فاخرة أو جهاز تليفزيون ، أو دفع مصاريف تلميذين أو ثلاثة فى الجامعة ، وطبعا لن أتحدث عن التوتر الآخر الذى ينشا دائما من تذكر هذه المعادلة » ٠

ورجع فتحى بكرسيه الى الوراء بعد أن انتهى من حديثه ، وهو يرمق بنصف عينيه وجوه الزملاء ، وبالنصف الآخر حلقات الدخان التى تنعقد فى جوانب الحجرة ثم تختفى خلال النوافذ المفتوحة على الطريق ٠

قال زميل كان لا يزال يجذب انفاس سيجارته بعمق :

ـ كلامك صحيح ، ولكن عجزنا عن ترك التدخين صحيح كذلك ! لقد حاولت الاقلاع عن التدخين عشرات المرات وفى النهاية خجلت من تكرار تلك المهزلة فقررت ألا أترك التدخين مهما تكن الظروف ..

وقال زميل آخر وهو يطفىء سيجارته فى نهايتها :

ـ أنا شخصيا لم أفكر فى الموضوع بهذه الطريقة من قبل ، ولكننى لن أقرر شيئا قبل أن أشاهد مصير الاخ فتحى فى تلك التجربة !!

وقال ثالث وهو يطفىء سيجارته من منتصفها :

ـ أنا مع فتحى على طول الخط ، ان كلامه حقيقى مائة فى المائة ، ولن يكون وحده فى هذه التجربة !

كان هاشم لا يزال صامتا طول الوقت ، كان أكبر الموظفين سنا وله أولاد فى المدارس ، وقال بصوت هادىء :

ـ من ناحيتى أنا مقتنع تماما بكلام فتحى ، وسأفكر فى الموضوع قليلا ، فقد كان فى الحقيقة مفاجأة لى ..

***

ذاع خبر اقلاع فتحى عن التدخين فى المصلحة كلها ، ولكنه لم ينتشر كمجرد خبر ، بل تردد مدعما بآراء فتحى فى بداية التدخين ونهايته ، فقد كان فتحى معروفا فى المصلحة كلها بانه الرجل الذى يحلل كل شىء ويفلسفه ، والحق أن زملاء فتحى فى الحجرة ، كان لهم الفضل فى نشر هذا الخبر ، حتى أصبح من الأشياء المألوفة أن يأتى كل يوم شخص أو أكثر ليشربوا القهوة مع فتحى ويستمعوا الى

آرائه فى التدخين . وفى الايام التى كان يتأخر فيها كان زملاؤه فى الحجرة سواء منهم المؤيدون والمعارضون يقومون بشرح هذه الافكار لأنها أصبحت تخص حجرتهم بطريقة ما ، وفى خلال أسبوعين لم يكن للمصلحة حديث سوى أفكار فتحى عن التدخين ، وأسفرت المناقشات عن وجود معسكرين بالمصلحة ، معسكر يؤيد فتحى بالقول والفعل ، والآخر يعارضه ويؤكد أن الفكرة لن يمتد بها العمر أكثر من شهر أو شهور ، وبدأت المراهنات بين أفراد المعسكرين ، واشتدت الحرب الباردة بينهما ، والغريب أن هذه الحرب قد تجاوزت حدود المصلحة ، فلكل واحد فى المصلحة أصدقاء خارجها وشلة يسهر معها فى احدى المقاهى ، وهكذا أصبحت أفكار فتحى عن التدخين تناقش فى أماكن مختلفة وتلقى فى كل مكان تصل اليه المعارضة والتأييد ، فكان كل واحد من أنصار فتحى يأتى ليعلن أمام الجميع أنه كسب صديقا مثلا فى وزارة الاوقاف أو وزارة العدل ، وكان من الطبيعى أيضا أن تنتقل الحرب داخل البيوت ، فالزوجات اللاتى اكتشفن فجأة أن أزواجهن أقلعوا عن التدخين ، ثم عرفن حكاية فتحى وآراءه ، كن بدورهن يتنافسن فى تكريم فتحى من مدخرات التدخين على شكل دعوات للغداء وللشاى ، بينما بدأت زوجات المعسكر الآخر اللاتى تصلهن الاخبار من هنا ومن هناك ينكدن على أزواجهن . وفى نهاية الشهر احتفل «معسكر فتحى» فى منزل هاشم الذى أصبح بدوره من كبار الدعاة ، احتفل الجميع بمولد « جمعية مقاطعة التدخين » وانتخب فتحى رئيسا لها ، وأعلنت زوجة هاشم مع بعض الزوجات الاخريات تكوين « جمعية أخرى اقتصادية » رأس مالها مدخرات التدخين تأخذها كل زوجة مرة فى نهاية كل شهر ، لتنتفع بها فى دفع مصاريف الاولاد أو شراء حاجات حديثة للبيوت .. !

***

وفى نهاية تلك الحفلة عاد فتحى الى بيته وحيدا فلم تكن له

زوجة ، وانفرد بنفسه بعد أن هدأت الضجة ، وراح لأول مرة يفكر فى هذا الموضوع كله ، كان الأمر يبدو له غريبا ، كيف حدث هذا كله فى شهر واحد ؟ لم يكن يفكر فى شىء من هذا حين قرر ذات مساء أن يترك التدخين ، كان الأمر فى البداية يخصه وحده ، وربما لولا فضول الزملاء ولولا رغبته دائما فى تبرير أفعاله وشرحها لما أحس أحد بالموضوع !! وحتى بعد أن ذاع الخبر وانتشر كانت روح الفكاهة هى التى تسوده وتغلب عليه ، ولكن الأمر قد انقلب جدا فى لحظة ما ، كان الجد والهزل يختلطان فيه بطريقة غريبة ، وحتى فكرة الجمعية كانت تبدو كفكاهة لا يدرى كيف التقطتها زوجة الاستاذ لتجعل منها حقيقة ضخمة ·· فلوس تدفع فى أول كل شهر ·· فلوس كانت تنفث فى الهواء تتحول الى مصاريف أولاد وثلاجات ·· ولكن ألم تكن تلك المعادلة من اكتشافه هو ؟ ماذا فى ذلك ؟ لماذا يتضايق من أفكاره ؟

وشعر بانه فى حاجة فعلا الى أن يواجه نفسه بشىء من الصراحة فلا أحد هنا معه ، ويمكنه أن يفكر فى هدوء ، كانت تلك أفكاره حقا ، وكان صادقا فى كل كلمة قالها ، ولكن كان ذلك منذ شهر أى صباح الليلة التى قرر فيها أن يقلع عن التدخين ، خلال هذا الشهر حدثت أشياء كثيرة ، أشياء أحس بها فى داخله ، أحس بها حتى النخاع ، لم تتح له فرصة واحدة ليتأملها أو ليحدث أحدا بها ، كان الأمر قد خرج من يده كلية ·· أنصار ومعارضون ·· ومراهنات ·· وأخيرا جمعية وجد نفسه على رأسها دون أن يكون بمقدوره أن يفتح فمه بكلمة واحدة ، حتى وهو يشرح أفكاره للزملاء الذين كانوا يفدون عليه كل يوم ، كان لا يجد فى نفسه الجرأة للحديث عن هذه الاشياء التى يحس بها تمزق داخله ، كان يشعر انهم جاءوا ليسمعوا كلاما معينا ، وكان حين ينتهى من حديثه ، ويلمح فى عيونهم الاعجاب بكلامه ، يحس بسخط هائل على نفسه وعليهم ، ان التجربة

التى يحكيها ليست مجرد كلمات ، انها تجربة حية ولذا فهى متغيرة، كان يود أن يجد بين أفراد معسكره شخصا واحدا فقط بدأ يعانى هذا التغير ، كان ينتظر أن يفاتحه أحد فى شىء كهذا ليفتح له قلبه ، ولكن أحدا لم يفعل ، كانت أفكاره حقيقية تماما لمدة أسبوعين قاوم خلالهما التوتر الحاد الذى كان يشعر به بعد ترك التدخين وحدث بعد ذلك ما كان يتوقعه ، اختفى التوتر تماما ، كان لا يحس بالحاجة الى التدخين الا لحظات عابرة يقاومها فى يسر وشعر بسعادة بالغة ، لقد فك الدائرة اللعينة التى كان يعيش داخلها ، لقد تحررت لحظات حياته كلها من طعم التبغ ورائحته ، ولكن احساسا غامضا وغريبا بدأ يطارد هذه اللحظات ٠ احساس بالفقد ، واحساس بالانتظار ، كان يشعر أن كل لحظة فى حياته قد فقدت شيئا ، وانها تنتظر هذا الشىء ، ومع أنه كان مصمما على ترك التدخين نهائيا ، فان هذه اللحظات لم تكن تصدقه ، كانت دائما تتلفت فى انتظار هذا الشىء المفقود كأنما لم تيأس بعد من عودته ، لحظات القراءة أصبحت لا تستغرقه ، انه يطفو فوقها دائما كأنما يبحث بدوره عن هذا الجزء المفقود ، يده تمتد الى جيوبه ، وتفتح أدراج المكتب ، وتشعل أعواد الثقاب ، لحظات الفرح تفقد حدتها وعمقها وتوشك أن تتحول مع الشعور بالفقد الى كآبة وندم ، لحظات العمل تمر بطيئة وثقيلة ، ولحظات الفراغ لاتنتهى ، والاحاديث لا تثير الاهتمام ، وحتى القهوة أصبح يشرب قدحين منها لكى يشعر بطعمها فى فمه ، انه يشعر بكل هذه الاشياء بطيئة وهادئة ، ولكنها تبدو راسخة الجذور وكأنها لن تمل الانتظار أبدا ٠٠ والمشكلة أنه لا يستطيع أن يتخفف من شعوره هذا حتى بمجرد التعبير عنه ، وبينما يستطيع أى شخص آخر فى جمعيته المزعومة أن يعلن انسحابه وعودته الى التدخين ، فانه لن يكون بمقدوره ابدا ان يفعل شيئا كهذا !! ولكن

هل هو يريد أن يفعله حقا ؟ ماذا يضيره ذلك مادام مصمما على أن يظل مستمرا فى التجربة ؟ ان ما يضايقه هو شعوره بانه أصبح محاصرا ٠٠ فى البداية قاوم مضايقات أفظع من هذه بكثير ، قاومها بارادة وتصميم ، ولكنه الآن يشعر أنها ليست ارادته هى التى تقاوم بل ارادة هذه الجمعية الوهمية التى أصبح يشعر بها كقيد ألعن ألف مرة من قيود التدخين ، ولكن هل هى جمعية وهمية حقا ؟ النقود التى دفعت الليلة والتى بدأت بدفعها حرم الاستاذ هاشم والآمال التى استيقظت فى الملابس والثلاجات وتدبير مصاريف الأولاد ؟ هل من أجل أن يشعر بحريته يعصف بكل هذه الآمال ؟ وأحسن أن عليه أن يحل هذا الاشكال النفسى السخيف ! ولكن كيف يحتفظ لنفسه بحريته وللجمعية بوجودها الحقيقى أو المزعوم ؟ وطرأت على ذهنه فكرة بدت له سخيفة ورائعة معا ولكنه عجز تماما عن مقاومتها ، لقد قام من فوره ونزل الى الشارع واشترى سيجارة ٠٠ سيجارة واحدة !! وجلس وحيدا يدخنها فى الظلام ، مع أنه لم يكن هناك غيره فى شقته ، ولم يجد للسيجارة طعما فى فمه ، وبالعكس أحس بدوار فى رأسه وصداعا خفيفا ، وهتف لنفسه فى سعادة :

ـ الآن يمكننى أن أؤكد اننى انتصرت على السجائر الى الابد ٠٠ لقد هزمتها حين فقدت لذتها فى حواسى ، لقد كنت أنتظرها وكنت أفتقد شيئا لا وجود له ٠٠

وفكر فى أن يحكى فى الصباح لزملائه التجربة التى مر بها ليلة أمس وربما كانوا يعانون مثله ، وبهذه الطريقة يمكنهم أن يتأكدوا من أن ما يعانونه ليس الا وهما ٠٠ ستضاف هذه التجربة الى التراث الفكرى للجمعية ٠٠ ان الجمعية شىء حقيقى وليست وهما كما تصور ٠٠ وفى تلك الليلة نام سعيدا بنفسه وبالجمعية ٠

***

فى الصباح تحدث مع زملائه فى كل شىء عدا تجربة الامس

لا يدرى لماذا ؟ لقد فكر أنه ربما لم يكن فى قدرة كل شخص أن يمر بهذه التجربة وينجو منها ، لقد وضع يده فى فم الأسد ، واذا جاز هذا بالنسبة له كرائد للجمعية ومفكر لها ، فانه لا يجوز لغيره أن يلعب تلك اللعبة الخطرة ، كان الجميع يفكرون فى المشروعات الجديدة التى تدبرها الزوجات ، ولم يكن يبدو أن ثمة قلقا من أى نوع يمرون به ، كان كل واحد من أعضاء الجمعية يأتى كل يوم ومعه أخبار فتوحاته ، وتحول عدد كبير منهم الى فلاسفة ومفكرين ، وكان فتحى يستمع الى أفكاره القديمة وهى تنمو وتكثر حولها الشروح والتعليقات ، ويفتح فمه فى دهشة وهو يستمع الى المعادلات الغريبة التى تتحول اليها مدخرات التدخين ، كان يريد أن يعصف بكل هذه الأشياء فى لحظة ضعف ، ولكن لماذا يذكر لحظات الضعف هذه ، لقد عرف كيف يسحقها بطريقة غريبة لايدرى كيف خطرت على باله ٠٠ لقد كانت تعاوده أحيانا لحظات الضعف هذه ٠٠ لحظات الشعور بالفقد والانتظار ، ولكنه كان قد عرف الحل ٠٠ سيجارة واحدة فقط يدور بعدها رأسه وينتابه الصداع الخفيف ويتبدد وهم الفقد والانتظار على الفور ٠

وذات ليلة اكتشف فتحى أن السيجارة التى كان يدخنها فى الظلام لتدير رأسه ، أصبحت تهدهده وأن الصداع قد اختفى تدريجيا ليحل محله خدر ناعم لذيذ وتوتر خفى فى الوقت نفسه ٠٠ وأفزعه الاكتشاف فى تلك الليلة،فقد كانت الليلة نفسها موعدا حدده أصدقاؤه للاحتفال بمرور شهرين على وجود جمعيتهم ٠٠ وكان مدعوا لتناول العشاء مع أصدقائه فى بيت أحدهم حيث يقام الحفل ، وتحامل على نفسه وذهب ٠٠ لم يكن يدرى ماذا يقول ؟ أو ماذا يفعل ؟ كان قد فقد قدرته على التفكير والتبرير ٠٠ ومع ذلك كان يلمح فى خاطره أن له ظروفا مختلفة ٠٠ انه رجل وحيد ٠٠ وبمقدوره أن يحتفظ

بالأمر سرا حتى لا تنهار الجمعية ، انه لا يمكن أن يكون وغدا الى هذا الحد ٠٠ على أسوأ الفروض يجب أن يظل الموضوع سرا ٠٠ !

بعد أن تناول الاصدقاء عشاءهم وسط عاصفة من الضحك رفع أحدهم اصبعه قائلا : لدى اقتراح أريد أن أقدمه لرئيس الجمعية ٠٠ ووافق الجميع ، وفكر فتحى « ليت الأمر كان هزلا كله » ٠

وقال الصديق : انه لا توجد جمعية فى العالم كله لها رئيس فقط ، بل لابد أن يكون للرئيس نائب أيضا يتصرف فى شئونها فى حالة غياب الرئيس مثلا أو ٠٠

وقاطعه آخر ضاحكا : أو عزله ٠٠

ورد ثالث : وما هى الحالات التى يعزل فيها الرئيس ؟

فعاد الأول يقول : « فى حالة واحدة ٠٠ اذا عاد الى التدخين » ٠

وأغرق الجميع فى الضحك ولحظتها فكر فتحى وهو يتظاهر بالضحك : « ان هذه الجمعية الشيطانية فيها شىء لله » ٠

وسأل أحد الزملاء : ومن ترشحون لهذا المنصب ؟

فقال الصديق : « هذا ليس مهما ، الآن المهم فقط الموافقة على المبدأ » !!

الأسلاك الشائكة

تتميز مدرسة « ..... » للبنات ـ ولا أرى أى مبرر فنى لذكر اسمها ـ بشيئين ، موقعها الغريب فى أحد مجاهل حى شبرا ، وناظرتها الحازمة التى لا تتسامح فى أى خطأ أو تقصير من التلميذات أو المدرسات أو المدرسين ، خاصة اذا كان هذا الخطأ يمس الاخلاق الفاضلة من قريب أو بعيد .

ولقد كان موقع المدرسة فى حى شبه مهجور ، لا تربطه بالشوارع الرئيسية الا مجموعة من الحارات الضيقة ، وبين ناس بسطاء فى حالهم وفى الوقت نفسه تحيط بالمدرسة من ثلاثة جوانب أسوار عالية ، وفى الجانب الخالى توجد مدرسة أطفال يلتقى فناؤها بفناء مدرسة البنات ، كان هذا الموقع الجغرافى الفريد ، أحد العوامل التى ساعدت الناظرة فى تنفيذ خطتها التى كانت تهدف أولا وأخيرا الى المحافظة على أخلاق البنات فى مرحلة المراهقة ...

ولم تعرف المدرسة فى تاريخها الطويل غير قصة واحدة من هذه القصص التى تقع عادة فى مدارس البنات ، وتروى القصة أن تلميذة من المدرسة أحبت مدرسا فى مدرسة الاطفال المجاورة ، وأن الناظرة رأتها وهى تتحدث مع المدرس فما كان منها الا أن جعلت من التلميذة عبرة لمن تعتبر من زميلاتها ،أما المدرس فقد سعت فى المنطقة الى نقله من المدرسة ، رغم أنه لايقع تحت سلطتها ، وكانت هذه القصة تروى بطريقة أو بأخرى أمام كل مدرس جديد ينقل الى المدرسة ، حتى يكون على بينة من أمره ، وحتى لا يلعب بذيله على حد تعبير الناظرة نفسها ، وفى أعقاب تلك القصة أمرت الناظرة بوضع سور من الاسلاك الشائكة ليفصل بين فناءى المدرستين ، وظل السور يؤدى وظيفته زمنا طويلا ولكن الزمن فى النهاية كان أقوى منه فتهدل ثم تقطع ثم زال نهائيا ، ولم يبق منه الا الاعمدة التى كان مشدودا اليها ..

وكان من الممكن أن تستمر المدرسة متمتعة بهذه الحصانة الاخلاقية التى أتيحت لها بفضل الموقع وبفضل الناظرة ، لولا هذا الحادث الذى لم يكن يخطر ببال مخلوق أن يقع بهذه الطريقة ، فى صباح أول يوم من أيام الامتحان النهائى ..

لقد وصلت التلميذات الى فناء المدرسة ، فى ساعة جد مبكرة من صباح ذلك اليوم من أيام مايو ، ليعرفن أماكن جلوسهن فى لجان الامتحان ، والربيع فى مثل هذا الوقت يفتح القلوب والاجساد بدفئه وعطره وهوائه المنعش النقى ، والاعصاب المتوترة المشدودة بفعل القلق والسهر والرهبة تكاد تبحث بشكل غريزى عن شىء مبهج أو مريح ، ولم تكد التلميذات يدخلن فناء المدرسة حتى وجدن الفناء المجاور (فناء مدرسة الاطفال) مليئا بشباب فى مثل عمرهن، يرتدين القمصان (الاسبور) وبأيديهم ملازم وأوراق يراجعون فيها دروسهم قبيل الامتحان ، ويقفون على بعد خطوات منهن ، كانت

المفاجأة ولاشك بديعة بالنسبة للجميع ، وكان من السهل أن تدرك التلميذات أن احدى لجان المدارس الثـــانوية للبنين سوف تؤدى امتحانها هنا طوال الأسبوع ...

ودبت فى الفناءين حركة عجيبة ، فالأولاد الذين كانوا مبعثرين فى فناء مدرسة الاطفال ، راحوا يتجمعون على حافة الفناء من ناحية مدرسة البنات ، ويصنعون بطول الفناء شاطئا بشريا ، ينظر ويتأمل وتعكس ملامحه فرحة غريزية ، لا تختلف بين وجه وآخر أما حركة البنات فقد بدت كما لو كانت تخضع لقانون المد والجزر تجاه هذا الشاطىء البشرى الصلب !! وتحول الوجوم الذاهل الذى يسبـق الامتحان عادة ، تحول على وجوه البنات الى نوع من المرح الصبيانى تتخلله ضحكات عالية ، يستجيب لها الشـاطىء البشـــرى أحيانا بالصفير وأحيانا بكلمات لا تكاد تسمع خلال هذا الضجيج المـرح الذى يصدر عنه بشكل جماعى مثير ..

كانت موجة المد تنبثق دائما من قلب الفناء فى صورة بنت جريئة تصنع رأس الموجة ، تطاردها زميلاتها فى اتجاه الشـاطىء الصلب ثم تنحسر الموجة ، وأحيانا توشك البنت أن تقع على الأرض من عنف المطاردة ، فتمتد لها الايدى تعاونها على الوقوف ، وتنفض عنها التراب .. وتتداخل الموجات ، كما تختلط الضحكات المرحة ، ويبدو كما لو كان الجميع يرقصون على موسيقى غامضة ، تعزفها أصابع غير منظورة فى هذا الوقت من الصباح ، ويشترك الهواء البارد المنعش فى هذه الرقصة فيتخلل شعر البنات ، ويداعب أطراف ثيابهن فينحنين فى رشاقة لتسويتها ، وتتكرر المداعبـــة وتتكـرر الانحناءة ..

والحق ان هذا المنظر الفريد ، كان يترك آثارا جد مختلفة فى نفوس الاساتذة الذين وصلوا الى المدرسة فى هذا الوقت المبكر ...

قال مدرس لزميله : اننى أشعر كما لو كنت أشاهد أحد مناظر الطبيعة النادرة ، انها أول حادثة غزل جماعى فى التاريخ .

ورد الزميل وهو يضحك : لا .. أظن أنها الثانية أما الأولى فقد حدثت بلا ريب فوق سفينة نوح .

فعاد الأول يقول بلهجة شامتة : سنرى ماذا ستفعل الناظرة أمام هذا التحدى الذى تعلنه الطبيعة وتسهم فيه بحسن نية وزارة التربية والتعليم .

وفى جانب آخر من الفناء وقف مدرس آخر من معسكر الناظرة يهمس فى أذن زميل له من المعسكر نفسه :

– هذا كلام فارغ . هذا جيل لافائدة فيه ! ترى مـــاذا كان يحدث لو لم يكن هناك امتحان بعد ساعة واحدة ؟

فرد الزميل : هذا ياسيدى هو الجيل الذى سيبنى الاشتراكية هل تريدنا أن نقف هكذا نتفرج على هذا العبث .

– ماذا تريدنا أن نفعل ؟

– ننهر هؤلاء الأوباش الذين يتركون الفناء خاليا ولا يحلو لهم الوقوف الا بجوار البنات ! لو جاءت الناظرة الآن لقالت اننا وقفنا نتفرج على هذا العبث دون أن نفعل شيئا .

ولم ينتظر رد زميله فقد اندفع غاضبا تجاه التلاميذ وقال بلهجة منذرة :

– « عيب .. لا داعى للوقوف هكذا » .

وقبل أن يفتح فمه بكلمة أخرى راح التلاميذ يرددون بصوت جماعى مرتفع ، العبيط أهو ·· العبيط أهو ! وانسحب المدرس وهو يهدر بالفاظ لم يسمعها أحد ·

وفى الجانب الآخر من الفناء كان المدرسان الآخران (وهما من المعسكر الذى يعارض اتجاهات الناظرة) يخفيان ضحكاتهما لما أصاب الزميل ، ويستبد بهما فضول شيطانى لرؤية الطريقة التى ستواجه بها الناظرة هذا الموقف · ويبدو أن التلميذات كن أيضا يترقبن وصولها بين لحظة وأخرى · فلم تكد الناظرة تبدو مقبلة من مدخل المدرسة ، حتى بدأت موجات البنات تنحصر الى داخل الفناء وبدا كما لو كانت الموسيقى الخفيفة قد توقفت فجأة ، وحتى الهواء يبدو أنه قد توقف هو الآخر ، ولكن الناظرة بغريزتها الاخلاقية الفذة أدركت الموضوع بوضوح شديد ، وبالاخص أن الشاطىء البشرى،كان لايزال ثابتا فى مكانه ، يرمق فى بلاهة وربما دون فهم هذا التغير الذى أصاب التلميذات ، فلقد بدا الفناء من ناحية التلاميذ خاليا تماما كأنه المنطقة الحرام بين جيشين متحاربين ·

ويبدو انه لم يكن أمام الناظرة فرصة لاتخاذ أى موقف الآن ·· فهناك اجراءات مهمة فى مثل هذا الوقت مثل فتح مظاريف الأسئلة بلجنة وتوزيعها مع أوراق الاجابة على رؤساء اللجان وتوزيع البنات على الفصول حتى تعرف كل بنت مكانها ، وراحت الناظرة تمارس هذه الاجراءات بدرجة من الجدية والصرامة فوق العادة ·· وبدأ الامتحان فى موعده ···

وكان الجميع يعتقدون أنها ستؤجل النظر فى مواجهة هذا الوضع الطارىء فى الاقل الى نهاية اليوم الأول من الامتحان ·

ولكن يبدو أنها قد علمت بما كان من أمر التلاميذ مع المدرس

الذى تعتمد عليه فى تنفيذ خطتها ، فقد فوجىء جميع المدرسين أثناء الملاحظة بالناظرة تمر على التلميذات فى اللجـــان ، وتنبه عليهن تنبيها وصل الى حد التهديد بالحرمان من الامتحان اذا اقتربن من فناء المدرسة المجاورة ، وفى الوقت نفسه كانت تهمس فى اذن من ينتمى الى معسكرها من المدرسين بأن يحضر اجتماعا خاصا ستعقده بعد الامتحان فى حجرتها ..

***

لم يحضر هذا الاجتماع سوى من تثق الناظرة فى اخلاصهم لخطتها من المدرسين وقد حضرته المشرفة الاجتماعية بحكم وظيفتها فقط فلم تكن الناظرة تستريح لافكارها ، وكانت تعتقد انها مثل بنات هذه الايام فى حاجة هى الأخرى الى من يشرف على تصرفاتها .. كانت الناظرة تأخذ آراء جميع المدرسين التى كانت تعرفها مقدمـا وحين جاء دور المشرفة قالت :

« انه من ناحية التلاميذ لا سلطة لنا عليهم ، فهذه لجنة ستغادر المكان بعد أسبوع ، وسلطات المشرفين عليها محـدودة بأعمـــال الامتحان ومن ناحية تلميذاتنا فلم يحدث منهن شىء حتى الآن وأرى أن تترك الامور فى مجراها العادى وكفى البنات ماهن فيه من توتر الامتحان وهمومه ... »

وهنا قالت الناظرة بعصبية : كنت أعرف أن هذا سيكون رأيك ولكن ثقى اننى لن اسمح بمثل هذه الرقاعة فى دور العلم ، صحيح انه لا سلطة لى على التلاميذ فى مثل هذه الظروف ولكننى سأعرف كيف أربى تلميذاتى ... اننى لم أكن هنا ومع ذلك فقد علمت بمـا حدث منهن .. وقد اتخذت جميع الاحتياطات . اننا فى أســبوع امتحان ومن الجائز جدا أن يزور المدرسة مدير المنطقـة أو غيره فماذا يقول حين يرى مثل هذه المناظر ويفهم اننا لم نفعل شيئا ...

فى صباح اليوم التالى حضرت الناظرة فى وقت مبكر ، وراقها لأول وهلة ، أن تعليماتها قد نفدت تماما ، فالمنطقة الحـــرام كانت خالية تماما ، وان كان مما اثار ضيقها أن التلميذات قد حضرن جميعا قبل أن تحضر ، ودون أن يكون ثمة مبرر لهذا التبكير وخاصة فى اليوم التالى ، وبعد أن عرفت كل تلميذة مكانها ، كما أنها لاحظت أن عددا كبيرا منهن لم يحضر بالزى المدرسى ، وان الفساتين الملونة كانت تجعل الفناء أشبه باحدى صالات دور العرض السينمائى ، كما زاد من سخطها أن التلاميذ كانوا يحتلون حافة الفناء المقابل وكأنهم أصبحوا جزءا من المكان ، ولم يكن بمقدورها أن تعترض على أى وضع من هذه الاوضاع ، فدخلت مكتبها مباشرة وطلبت قدحا من القهوة ...

ويبدو أن الاولاد قد فهموا الموقف بطريقة ما ، فلم يكـادوا يشعرون بدخول الناظرة الى مكتبها ، حتى بدأت الحياة تـــدب فى الشاطىء البشرى فراح يزحف بطريقة لاتكـــاد تحس الى المنطقـــة الحرام ، وكأنما كانت هذه الحركة من جانبهم ايذانا لهذه الموسيقى الخفية بأن تبدأ العزف ، ولا أحد يدرى كيف مست هذه الموسيقى التلميذات جميعا فبدأت رقصة المد والجزر ، وراحت موجات البنات تنكسر هذه المرة على الشاطىء الوهمى للمنطقة الحرام لاتتعداه ، واشترك الهواء البارد كعادته ، وكأنما أغرته فساتين البنات الملونة فى هذا الصباح فكانت أطرافها ترقص هى الأخرى مع خفقات الهواء فى كل اتجاه .. ولو قدر لمصور ماكر أن يلتقط صورة لفناء المدرسة فى تلك اللحظة لظهرت فيها رءوس التلميذات جميعا ، وهى تنظر من جميع الزوايا الى الشاطىء البشرى ... وكان من الممكن رغم هذا كله أن يمضى اليوم بخير ، لولا أن الشاطىء البشرى أدرك بغريزته أن زحفه الجماعى ، لابد أن يتوقف قبل أن يتحول الى عدوان جماعى خاصة أن جزءا كبيرا من المنطقة الحرام كان قد اختفى فعلا وان

الأمر بعد هذا يجب أن يترك للبطولات الفردية ، وفى الحق انه من العسير أن يدرك شخص كيف تفكر مجموعة كهـذه فى مثـــل هذا الموقف ، وكيف تصل الى نتائج واحدة ، فالذى حدث بعد ذلك هو أن معركة وهمية قد نشبت بين مجموعة من التلاميذ وانتهت بأن قذف أحد المتشاجرين أوراق زميله الى ماخلف المنطقة الحـرام ، فتقدم أجرأ الاولاد واندس وسط البنات اللاتى تخاطفن الاوراق وبعثرنها من جديد،واشترك الهواء فى اللعبة نفسها التى لم تستمر غير لحظات استبد فيها المرح بالتلميذات ، ووقعت أكثر من تلميذة على الارض وعاد التلميذ الى مكانه كأعظم فارس يلوح بما يحمـل من أوراق وطير الخبر للناظرة التى أرغت وأزبدت ولعنت الفراش الذى أبلغها الخبر ، لانه لم يحضر لها التلميذ ، الذى تجرأ على اقتحام الفناء ، ومع ذلك فلم تغادر مكتبها فى ذلك الوقت فقد كانت تعلم بخبرتها أن أى محاولة لمعرفة التلميذ لن تجدى مادام قد أفلت ، وفى نهاية اليوم دعت الناظرة المدرسين الى اجتماع طارىء لم تحضره المشـرفة ، وانتهى الاجتماع بضرورة أن يعاد سور الاسلاك الشائكة الى مكانه ليحجز خلفه هؤلاء القرود ...

***

وفى صباح اليوم التالى بدا الفناء كأنه أحد المعســـكرات . الأولاد يقفون وراء الاسلاك الشائكة ، والمنطقة الحرام خالية تماما وفى الجانب الآخر تقف البنات وهن يلقين على الاسلاك نظرات مشوبة بالغيظ لم يدم هذا كله الا قليلا فقد هب على الفناء هواء رقيق منعش وتمايلت الازهار فى حديقة المدرسة الجانبية ، ولم تستطع الاســلاك بل ربما هى التى دفعت الأولاد وهم فى حمايتها الى أن يكونوا أكثر جرأة فرحوا يلوحون للبنات بمناديلهم ، ويرسلون لهن القبلات فى الهواء .

وسرعان ماعزفت الموسيقى الغامضة ، وبدأت رقصة المـــد والجزر تغطى جزءا من المنطقة الحرام ، ولا يدرى أحد كيف حصل الأولاد على كرة صغيرة ، راحوا يقذفونها من تحت الاسلاك لترتد اليهم من أقدام الموجات المتتابعة ، وكانت الكرة فى حركتها السريعة المضطربة بين الاقدام المحمومة تصنع نسيجا معقدا يكاد يغطى المنطقة الحرام بآلاف الخطوط الوهمية ، هذه الخطـوط التى بدت وكأنهـا محاولة لشطب هذه المنطقة من الوجود ٠٠ وكان من العسـير على الشيطان نفسه أن يكتشف فى كل لحظة من لحظات ارتداد الكـرة صاحب القدمين اللتين تقذفانها ٠

***

ومن جديد طير الخبر للناظرة ، ولكنها وجمت قليلا قبل أن تصرخ فى وجه الفراش الذى أبلغها الخبر :

ـ ألم يعد وراءنا غير هؤلاء الخنازير ؟ خد الكرة وارم بها فى جهنم وأتنى بأى تلميذة تشترك فى هذا العبث ٠

وأدرك الفراش بحاسة غامضة نمت من طول معاملته للناظرة أن الناظرة غير جادة فى هذا الوعيد ، وأن ماعليه الا أن يأخذ الكرة ويبعدها عن أقدام التلاميذ !!

***

فى صباح اليوم التالى كان مع الأولاد مجموعـة من الكرات وحين أبعد الفراش أول كرة نزلت الثانية والثالثة وأصبح كل فراش يتجنب الوقوف فى الفناء ويشغل نفسه بأى عمل فى مكان آخر حتى لايتحمل مسئولية ابعاد الكرات عن أقدام التلاميذ كمايحاول أى فراش ابلاغ الناظرة بأى شىء ، والغريب أن الناظرة نفسها لزمت مكتبها فلم تكن تغادره الا بعد بدء الامتحان ، وكأنما أدرك الأولاد والبنات

هذا كله فكانت المنطقة الحرام تختفى شيئا فشيئا ، وكانت رقصة المد والجزر تصل الى أقصى مدى يمكن أن تصل اليه ...

ويزعم شاهد عيان من المعسكر المناوىء للناظرة أن الأولاد والبنات فى هذا اليوم ، كفوا عن استخدام الكـــرات كما كانـوا يتبادلون أوراق النشاف والمساطر والاقلام التى يزعم بعض التلاميذ انهم فقدوها فى الطريق ، بل وصـل الأمـــر الى حد اســـتجداء الساندوتش من البنات .

كما يزعم شاهد عيان آخر من معسكر الناظرة انها شربت فى اليوم الأخير أربعة أقداح قهوة سادة ولم يكن يصبرها على هذا كله الا أن امتحانات البنات ستنتهى فى هذا اليوم .

***

فى اليوم التالى اكتشف التلاميذ أنه لاتوجد فى المدرســـة المجاورة بنت واحدة ، وكانوا قد حضروا مبكرين كالعادة ويزعـم شاهد محايد هذه المرة أن تلميذا واحدا لم يقترب من السور الشائك، وان هذا السور كان فقط يحـــاول أن يفصـــل بين الهواء فى فناء المدرستين .

الصـــديق الذى لا يرحم

هذا العمل ليس قصة قصيرة ، كما انه ليس مسرحية من فصل واحد انه مجرد حوار ، دار ذات ليلة بين الكاتب وصـــديقه الذي لا يرحم ، ربما يكتشف القارىء الذى يمارس الكتابة فى مجتمعنا أن هذا الصديق نفسه قد زاره ذات ليلة وان شيئا كهذا قد دار بينهما ولهذا أجدنى مضطرا الى الاعتذار لهؤلاء الذين سيجدون فى هذا شيئا مكررا يعرفونه ، والتبرير الوحيد الذى أسوقه لهـــم أن هذا الصديق لن يكف عن تكرار زيارته لأن هذا التكرار هومانحتاجهدائما من هذا الصديق !

***

رفع الكاتب رأسه عن صفحات الكتاب الذى كان يقرأ فيـــه حين سمع طرقات خفيفة على باب حجرته (وتذكر انه ربما نسي باب الشقة مفتوحا كعادته حين يكون وحده) وقبل أن يتحرك من مقعده

كان الطارق قد دفع الباب ودخل وجلس فى المقعد المقابل دون أن يحاول حتى مصافحته !

كانت ترتسم على شفتيه ابتسامة ودود وصارمة فى الوقت نفسه ، وهمس بصوت فيه نبرة من اعتاد الدخول والحديث بهذه الطريقة :

ـ هيه ... كيف الحال ؟

الكاتب : كما ترى ليس رديئا جدا !!

الصديق : (بنبرة ساخرة) ومتى تتوقع أن يصبح حسنا جدا ؟

الكاتب : ذلك يحدث احيانا دون توقع !

الصديق : ولمدة طويلة ؟

الكاتب : قد يكون ، بيد ان الاوقات الطيبة لانشعر أبدا بطولها !!

الصديق : وماذا تقرأ الآن ؟

الكاتب : رواية « جسر على نهر درينا » .

الصديق : وهل فرغت من القصة التى بدأت كتابتها فى الأسبوع الماضى ؟

الكاتب : ظروفى هذا الاسبوع لم تكن طيبة و ...

الصديق : والقراءة ممكنة فى كل الظروف أما الكتابة فتحتاج وقتا مناسبا ، هذا ماتكرره دائما حتى حفظته ، أنسيت انك لم تكتب حرفا واحدا منذ ستة أشهر تقريبا ؟

الكاتب : اعرف ذلك ، بيد انك تتكلم كما لو كنت تجهل كيف مرت هذه الشهور الستة ، انها النصف الأخير من العام

الدراسى ياصديقى حيث تتكدس الاعمال على المدرسين ، مراجعات الدروس ، امتحانات فترة ، امتحانات نقل ، أقسم لو انك اشتغلت مدرسا ما كتبت حرفا واحدا ٠

الصديق : عيبك الجديد انك أصبحت لا تكف عن اطراء نفسك ولاتترك فرصة تمر دون أن تفعل ذلك بطريقة ما ، ان كتابا كبارا ممن تقرأ لهم وتتعلم منهم زاولوا مهنا أفظع من التدريس ، بعضهم عمل سباكا ، وبعضهم كان يغسل الاطباق فى المطاعم ، وبعضهم فقد يده التى يكتب بها فى الحرب وقبل أن يصبح قادرا على استخدام سكرتيرة ٠

الكاتب : صدقنى انا لا انفعل كثيرا بهذه السخافات التى يصر كل كاتب ناجح على أن يملأ بها عدة سطور تحت صورته التى تزين الغلاف الخلفى عادة ، وهذه التقليعة عادة لاينفرد بها الكتاب الناجحون ، ان كل رجل ناجح يلذ له دائما وقد وصل الى القمة أن يذكر الصعوبات التى واجهته ولكننى لم أصادف واحدا من هؤلاء الناجحين واتته الشجاعة ليذكر احدى المصادفات السعيدة التى دفعت به الى تلك القمة ، والتى اعتقد أنها شرط ضرورى للنجاح ٠ لاتغنى عنه الموهبة !

الصديق : ولماذا تنفعل هكذا ؟ اعتقد انه من الافضل أن تعاملنى كضيف ، وتقدم لى قدحا من القهوة حتى تجد نفسك ، ويمكن أن نتناقش فى هدوء ، ما أسخف ان يرتفع التكليف بين صديقين حتى ينسى أن يقدم احدهما للآخر قدحا من القهوة ٠٠٠

***

(الكاتب يقدم لصديقه قدح القهوة التى صنعها بنفسه ،

ويشعل له سيجارة يجذب منهـا نفســـا عميقا قبل أن يستأنف حديثه)

الصديق : اعتقد انك تبالغ كثيرا فى دور المصادفة فى حيـاة أى شخص ناجح ، كما انك تبالغ فى نسبة أشياء كثيرة الى ما تسميه ظروف المرء · أذكر اننى أصبحت أسمع منك كثيرا هذه العبارة « انه يبدو كمـــا لو كانت الظروف تتآمر ضدى » · ان الظروف يا صديقى مجموعة أشياء محايدة ، لا تعنيك أبدا ولا تشـــعر بك ، انها موجودة فى العالم قبل وبعد أن توجد ، ونحن نمر بها كما تمر قافلة بأشجار كثيفة فى الطريق ، فبينما يستخدم البعض هذه الأشجار ، يراها الآخـــرون قد نبتت خصـــيصا لتعوقهم ، وفى مثل هذا الاعتقاد قـــدر لا بأس به من الغرور كما ترى ·

ولهذا فأنا أفهم المصادفة بطريقة مختلفة ، انها لا تعنى فى رأيى شيئا آخر غير الاصرار ، الاصرار على أن نمضى فى طريقنا حتى نهايته مهما تكن الظروف ، واذا حدث أن أحاطت بنا هذه الظروف فى شكل قيد فان هذا القيد لا يكون أبدا محكم الحلقات كما تظن ، انـه دائما توجد فى كل القيود حلقة واهنة ، والاصرار هو الذى يجعلك تعثر على هذه الحلقة فى لحظة ما ، وفى تلك اللحظة سوف ينكسر القيد الضخم فيسمى البلهاء مثلك هذه اللحظة مصادفة ، وليس للمصادفة من معنى سوى الاصرار ··· أتفهم الاصرار على أن تمضى فى طريقك !!

الكـاتب : (وقد بدا على وجهه قدر هائل من السخط) ··

ـ أحب أولا أن تفهم أنه ليس فى نيتى الليلة أن أدافع عن الفشل،بيد اننى أريد أن أقول ان كلامك هذا يرسم صورة جميلة ولكن ليست للحقيقة ، اننى أشعر فى هذه اللحظة كما لو لم تكن شخصا مثلنا من دم ولحم وتخضع لنفس القوانين التى يخضع لها الجسم البشرى فى عالم تحكمه مجموعة معقدة وصارمة من القوانين ان الشخص الذى يتحدث اليك الآن هو من الناحية النوعية والبيولوجية جسد حيوان ، ومن الناحية الاجتماعية مدرس وزوج وأب لطفلة،ومن الناحية الاقتصادية موظف دخله عشرون جنيها فى الشهر ، افهم هذا جيدا قبل أن تدخل فى التفاصيل ، حين تكون مدرسا تؤدى خمسا وعشرين حصة فى الأسبوع ، أعنى تقف على قدميك أربع ساعات كل يوم فى غابة بشرية تتكلم وأحيانا تصرخ ، وتحاول أن تسيطر على هذه الغابة التى تنفجر بالرغبات المتناقضة وتحافظ على هذا النسيج المعقد الذى يربطك بها ، هذا النسيج الذى يختلط فيه الحب بالكراهية ، والرقة بالعنف ، والجد بالهزل ، والمعرفة بالسخف ثم تخرج من هذه الغابة لتجد فى انتظارك مستنقعا آخر أسمه الكراسات مليئا بالطحالب الزرقاء التى تمتص النور من عينيك ، وتزرع السأم فى قلبك ، ثم لا تنفع أحدا غير المفتش الذى يتلمس فيها خطأ لك ..

دعك من السخافات الأخرى التى يشغلك بها الناظر طوال اليوم،حين تفعل هذا كله ، وتعود الى بيتك بعد الثالثة والنصف فان القانون الذى يخضع له جسد الحيوان الذى حدثتك عنه سيؤكد لك انه فى حاجة الى

رقدة طويلة قبل أن يصبح قـادرا على بذل أى مجهود آخر ..

طبعا لست فى حاجة الى أن أفصـــــل لك بنفس الطريقة ، قانون المجتمع الذى يخضع له كزوج وأب ، عليه أن يلبى حاجات أسرته فى حدود قانون اقتصادى آخر ، لا يسمح له بأكثر من عشرين جنيها فى الشهر ، ثم يأتى دورك أيها الصديق الذى لا يرحم لتسأل : لماذا لا تكتب ؟ !

الصديق : (وقد ارتسمت على ملامحه الصارمة ابتسامة لا تخلو من السخرية)

ـ لم أكن أريد أن أثيرك الى هذا الحد ! ولست أدرى كيف أعيد الهدوء الى نفسك ؟ الديكم شىء آخر غير القهوة يمكن أن يهدىء الأعصاب ؟

الكـاتب : أعتقد أنه لو تكلمت بطريقة واقعية تنبىء عن فهم لظروفى التى تعرفها جيدا لأدى هذا الى الغرض دون أن تكلفنى القيام بعمل شىء ..

الصديق : يبدو اننى لست على استعداد لتحقيق مطلبك يا صديقى وانت تعرف ان حبى لك واعجابى بك يمنعانـــى من أن أخدعك بكلام لا أعتقده ، حتى ولو كان يعيد الهدوء الى أعصابك الثائرة ! اننا لو أنصتنا لأعظم الفاشلين فى العالم بل وأعظم المجرمين وهم يدافعون عن أنفسهم لربما ذكروا مئات الحقائق التى تفوق حقائقك تبريرا لسلوكهم ولربما ظهروا لنا شهداء أكثر من ضحاياهم وأنا لا أحب

كثيرا هذه الكلمات ٠٠ الواقع ٠ الحقيقة ٠٠ ان الفشل حقيقة ولكن النجاح حقيقة كذلك ، وليس أمامك سوى أن تختار حقيقتك ، ودائما سيكون اختيارك هو أنت !

انت ترى ان عملك كمدرس ووضعك الاجتماعى والاقتصادى لا يسمحان لك بأن تقرأ وتكتب كما تحب ٠ حسن ٠ ولماذا تزعج الناس بذلك ! يمكنك ألا تفعل شيئا أبدا !! هل جاءت جماهير غفيرة من الناس ووقفوا أمام منزلك ورجوك أن تكتب قصة لأن أحد المتعلقين بفنك يهدد بالانتحار ؟ !

لا أظن أن شيئا من ذلك قد حدث ، ولو لم تكتب حرفا واحدا ما تغير شىء فى هذا العالم بل فى هذا الشارع الذى تسكنه ، سيظل ترام ٧ يقطع نفس الشارع، ولن يتأخر بائع اللبن الذى يدق جرس شقتك كل صباح عن موعده ، ألا ترى أنك تعكس القضية تماما ، انه انت الذى فى حاجة الى أن تكسب اهتمام الناس ! انه انت الذى يريد أن يشعر العالم بأنه كان هنا فى مكان من الأرض وفى فترة من التاريخ ! انه انت الذى لا تريد أن تعبر هذا العالم دون أن تترك عليه بصمات روحك ٠٠ !

(يبدو على الكاتب نوع من الذهول ويردد بصوت تبدو فيه الحيرة،حيرة شخص يستجمع قواه أمام مفاجأة ليست غريبة عليه كلية)

الكاتب : روحى ٠٠٠ سمعتك تقول روحى أيها الصديق ٠٠ ؟ كفى ٠٠٠ كفى اننى اشعر لأول مرة كما لو كانت روحى هى التى تتكلم ، وان هذا الصوت ٠٠ صوتك ليس غريبا

على أذنى ٠٠ كيف حدث ؟ اننى اسمعه منك كما لو كان كلام شخص آخر ؟؟ اننى أشعر أننا نقتـــرب فى هذه اللحظة واننا متفاهمان أكثر مما تتصـــور ٠٠ بيد ان الموضوع لاينتهى بهذا اليسر ٠٠٠٠ لقد ذكرنى صوتك هذا بصوت آخر كان يتردد فى داخلى كانما ليرد على نفس كلماتك ٠ معذرة فالأصوات تتداخـــل فى عقلـى وتمتزج !! اريد أن أقول لماذا قدر للفنان وحده أن يتخذ منه مجتمعه هذا الموقف أو بعبارة أدق لماذا يتخذ هذا الموقف من فنه ، انه (أى المجتمع) لايتخذ نفس الموقف من الاشخاص الآخرين ، ولا من الاعمال الأخرى ، تصور لو أن سائقى الترام أو بائعى اللبن أو حتى المدرسين كفوا فجأة عن أداء أعمالهم ذات صباح لسبب ما ألا تذهب الجماهير الغفيرة الى بيوتهم فى مظاهرة كتلك التى تسخر منها تدعوهم الى العودة الى عملهـم ، أو على الأقل لتتبين حقيقة الأمر لماذا قدر للفنان وحده ان يتخذ منه مجتمعه هذا الموقف ؟

الصديق : (وقد بدا عليه الفزع لما يسمع) ٠

ـ اسمح لى أن أكلمك بصراحة ، اننى حين اسمع منك هذه التساؤلات الساذجة أشعر أنك لست على ما يرام هذه الليلة ومع ذلك فدعنى أسألك عن شىء يبدو خارجا عن موضوعنا ٠ هل شربت شيئا هذه الليلة ؟ أم هـل تشاجرت مع زوجك ؟ اننى لا أشعر بوجودها الليلة ! هل تخاصمتما ؟ هل حملتها هى الأخرى مسـئولية عـدم كتابتك ؟ هل انفجرت فيها كما فعلت معى منذ دقائـق وقلت لها فى بلاهة « أنت لاتصلحين زوجة لفنان أنت لاتفهميننى ، أنت مسئولة أمام الاجيال عن تبديد موهبتى

لأنك لا تكفين عن ازعاجى بمشـــكلاتك الصـــغيرة ، أنت ... !

الكـاتب : بالله دعك لحظة من سخرياتك ، وتكلم بجد ، فزوجتى ليست هنا حقا لا لسبب واحد من هذه الأسـباب التى ذكرتها ولكن لأنها سافرت مع وحيدتنا التى كانت مريضة وشفيت منذ أيام .. لقد سافرا معا ليستجما عند أهلها، ومرض ابنتى هذا احدى الحقائـــق التى اخـذت على عاتقك الليلة مهمة السخرية بها ، كانت مريضة ، وكانت تستيقظ فى الليل مرارا وهى تصرخ دون أن يكون فى قدرتها أن تحدد لنا مكان الألم أو كيفيته ، حيوان صغير يتلوى دون أن يفصح عن شـــىء ودون أن يكـون فى مقدورك أن تفعل شيئا يجعله يكف عن هذا الصـراخ أقسم لو انك كنت أبا واضطررت الى أن تقوم مرارا كل ليلة ، وفى نفس اللحظة التى بدأ النوم فيها يتسلل الى جفنيك لتحمل بين ذراعيك مخلوقا يعتصره الألم بـــلا رحمة ، ويخيل اليك لما يسود الليل من سكون وصمت ان صراخ طفلك مسموع فى الشارع كله ، لو حدث لك هذا كله ، ثم كان عليك أن تستيقظ فى ســـاعة مبكرة لتواصل الصراخ فى غابة بشرية ، لحاولت على الأقل أن تحترم آلام الآخرين بدلا من أن تعبث بها .. !

الصديق : الاحظ يا صديقى أنك عدت من جديد الى الشكوى وكنت اعتقد اننا تجاوزنا هذه القضية ، ومع ان الألم شىء انسانى ومطلوب للفنان كالسعادة تماما فانك تأخذ منه موقفا معيبا ، ويخيل الى أن جيلنا هذا قد نسى احدى فضائل الأجيال القديمة نسيانا تاما ، فى الماضى كان

للبشر جميعا فضيلة اسمها الكتمان ، كانوا يخجلون من البوح بآلامهم على هذا النحو المعيب اما الآن فيبدو أن الشكوى والصراخ اصبحا من فضائل هذا العصر وبدلا من أن نكسب قلوب الناس بصمودنا نحـاول ذلك عن طريق انهيارنا !!

الكـاتب : انك تسمى انسانية المرء وصدقه وبساطته ضعفا ، ان أهم ما يميز الانسان الحديث انه لا يحاول أن يكون أكبر من حقيقته .. !

الصديق : أرجوك لا تتحدث عن الانسانية على هذا النحو المضحك فى العصور القديمة كان الناس يلقون فى النار وامام الأسود الجائعة من أجل عقائدهم وفى العصور الحديثة يعانون الهول من أجل موقف أو فكرة فالى أى انسانية تنسب هؤلاء جميعا ؟ ومع ذلك فثق اننى لا أقصد أبدا الى السخرية بآلامك ومتاعبك الصغيرة .. انك بانفعالك تبعدنا عن موضوعنا .

الكـاتب : لست أفهم أبدا الى أى شىء تقصد بعد هذا كله ، واذا لم تكن تقصد الى السخرية بآلامى ؟ آلامى الصغيرة على حد قولك !!

الصديق : أود أن نرى الأشياء فى وضوح ، وألا نتـرك الخيوط تتشابك . هناك خيط دقيق تركناه منذ لحظات وسنعود اليه ولكننا لن نفعل قبل أن نصل الى نهاية هذا الخيط الأخير الذى فى يدنا حكاية المتاعب الصغيرة هذه ، قلت لك اننى لااريد أن أسخر منك حين اسميها كذلك بل ربما كان العكس هو ما أقصده فهذه الآلام الصغيرة من ناحيـة

النتائج أخطر بكثير مما نسـميه الآلام الكبيرة فحين نواجه خصومنا فى صورتهم الحقيقية فهذه المواجهة والآلام التى تنشأ عنها تثير فى المرء تحديا مساويا لها ، انها تستفز كل كبريائه وعظمته اما هذه المتاعب اليومية الصغيرة ، والتى قد تكون هى الوجه الخفى لنظام فاسد، فى هذه المتاعب الصغيرة يكمن الخطر انها تتسلل الى حياة المرء فى سكون كالداء الخبيث دون أن يشعر بها ودون أن تستفز مقاومته ، انها تنخر فيه كالسوس حين يحطم شجرة سرو ضخمة ، وينزف العمر يوما بعد يوم دون أن يحس بأن ثمة خطرا ما يتهدده ، يظل المرء يعتقد أن اليوم التالى سيكون أفضل من الامس ، فغدا قد لاتمرض الطفلة وبعد عام سيزيد مرتبى جنيهين ، وحينذاك ستكف زوجتى عن اثارة المتاعب بسبب ديونى، ولن أزور أحدا حتى يكف الناس عن ملاحقتى فى البيت وتبديد وقتى ! وفجأة يكتشف دون أن يدرى أن كل شىء قد انقضى وهو لايزال واقفا فى مكانه لم يتحرك خطوة ، هنا يا صديقى يكمن الخطر الحقيقى ، فى هذه المتاعب اليومية الصغيرة !!

الكاتب : (وقد بدا عليه السرور) .

لأول مرة تبدو مدافعا عن موقفى أيها الصديق المحير، ويبدو أنا سنلتقى فى النهاية كشأننا دائما ، بيد أننى أود أن نعود الى الخيط الذى تركناه منذ لحظات ، أليس من الغريب ياصديقى أن يخوض الكاتب هذه المعركة ضد متاعبه الصغيرة القاتلة وفى ذات الوقت يأخذمنهالمجتمع هذا الموقف الغريب ، فلا يكترث بفنه مثلما يكترث بتأخر بائع اللبن أو سائق الترام عن موعدهما ؟

لماذا يقدر لهذا المخلوق وحده أن يحارب فى جبهتين دائما وفى وقت واحد ؟

الصديق : ان ماتقوله الآن يؤكد مخاوفى الماضية ، ويبدو ان المتاعب الصغيرة قد اجهزت عليك فعلا فجعلتك تنسى حقيقتك ، وتنسى طبيعة الدور الذى تقوم به ، ان سائق الترام ، وبائع اللبن والمدرس وغيرهم يلبون للمجتمع حاجات مسبقة ، فانت تنام فى انتظار بائع اللبن وتقف على المحطة فى انتظار سائق الترام حتى يصل بك لموعدك المحدد مثل كل الأيام وآلاف التلاميذ يتوجهون الى المدارس لسماع دروس اعدت من قبل ، وتكررت منذ سنين طويلة ، أما الكاتب فمهمته أشق بكثير، انه لا يلبى حاجات قديمة بل انه يستثير لدى قرائه حاجات جديدة ، وحوافز لم تخلق بعد ، انه يسبقهم دائما لأنه يقف دائما على حافة المجهول فى نفوسهم وفى حياتهم انه يستنقذهم دائما من قيود الحاجات القديمة ، ويفتح عيونهم على رؤية جديدة لهذا العالم الذى يبدو لأول وهلة أنه يكرر نفسه بطريقة قاتلة ، ألا ترى أيها الصديق أن المتاعب الصغيرة كادت بدورها أن تستعبدك ، وان تضعك فى الحلقة المقفلة التى تدور فيها دائما دون أن تصل الى نهاية أى شىء ؟

الكاتب : (فى شبه ذهول) ٠

ـ حسن أيها الصديق ٠٠٠ ولكن كم يبدو كل ذلك مرعبا، كيف يمكن أن تصل الأمور بالمرء الى هذا الحد ؟ اعنى الى الحد الذى يقف فيه مدافعا ضد نفسه ؟! يخيل الى

الآن ان حديثا كهذا قد دار بيننا ذات مساء واننى وعيت منك هذه الحقيقة من قبل ، ومع ذلك فان ما يفزعنى حقا اننى ابدو كما لو كنت اسمع هذا الكلام لأول مرة ، كيف ينسى المرء حقيقته الى هذا الحد ٠٠ ؟ لقد كنت أدافع الميلة عن جسد الحيوان والقوانين التى يخضع لها وأذكر اننى تحدثت عن حيوان آخر اسمه المجتمع والنظام الاقتصادى وذكرت أن لهما بدورهما مجموعة من القوانين ، كنت أفعل هذا كله ضد حقيقة أخرى٠٠لاادرى كيف نسيتها ؟ ولكن قل لى أيها الصديق لماذا لا تبدو هذه الحقيقة الاخيرة على قدر من الصلابة مثل بقية الحقائق الأخرى السابقة ؟؟ أليست لها هى الأخرى مجموعة من القوانين يمكن أن تحميها من هذه الحقائق التى يبدو انها تتربص بها دائما ٠٠٠ ؟

الصديق : ألاحظ أن هذه الكلمة (القوانين) تسحرك كثيرا وفى الحق أننى لا أدرى اجابة شافية عن هذا السؤال ربما كانت هناك قوانين لم تكتشف بعد !!

الكاتب : اننى أفكر الآن فى هذا السؤال المقلق ! ماذا يحدث لو لم تأت أنت هذه الليلة ؟ أكان من الجائز أن أظل مجرد مدرس يحترف الشكوى ويثرثر بقوانين المجتمع والجسد والاقتصاد ؟ بل دعنى اعترف لك بأن ثمة خوفا رهيبا يملأ قلبى ، اذ انه من الجائز مادام ذلك قد حدث مرة ان أعود الى مثل هذه الثرثرة مرة أخرى !!

الصديق : لا أحب أن أخدعك ياصديقى فلن تنتهى الحرب أبدا بينك وبين هذه المتاعب الصغيرة ، وليس هذاك أخطر من أن

تتوهم ذلك ذات يوم فهذه المتاعب اليومية تأخذ صورا متعددة ، وترتدى أزيـاء تناسـب كل الأعمال وكل المستويات وتأخذ احيانا شكل المتعة والسـعادة ، ان القوانين التى تحدثت عنها تريد ناسا يلتئمون معها ، يناسبونها كما يناسب الثوب صاحبه بينما لا تكف تلك الحقيقة الأخرى (والتى ربما لايكون لها قانون) عن خلق نماذج جديدة تتمزق الأثواب القديمة عن جسدها وفى كل يوم يكسب كل ميدان من الميدانين انصارا ..

الكـاتب : حسن أيها الصديق ، ان زيارتك لى تحدث أحيانا فجأة كما لو كانت هى الأخرى لا تخضع لأية قوانين ! بودى لو أطمئن الى أنك لن تتخلى عنى يوما وثق اننى سأعد لك دائما مفاجأة سارة حين تحضر وبالمناسبة لـدى زجاجة شمبانيا من نوع فاخر اهداها لى صديق قدم من الخارج منذ يومين ، وزوجتى ليست هنا ، ويمكننا أن نشرب معا .

***

و ... وأحضر الكاتب الزجـاجة وصب قدحين وشرب فى صحة الصديق الذى لا يرحم .